نور الدين محقق

وقت الرحيل

رواية

سلسلة إبداع

منشورات
وزارة الثقافة

وقت الرحيل : نورالدين محقق
الإيداع القانوني : 2007/2174
ردمـــك : 9954-0-4129-X
منشورات وزارة الثقافة 2007
سحـب : مطبعة دار المناهل - 2007

نو الدين محقق

وقت

الرحيل

- رواية -

سيرة حياة
سيرة كتابة

د. نور الدين محقق

1 ـ عضو اتحاد كتاب المغرب

2 ـ عضو المركز المغربي لحوار الثقافات

3 ـ دكتوراه في الآداب، تخصص السرد العربي بميزة مشرف جدا.

4 ـ مشارك في العديد من التظاهرات الثقافية داخل المغرب وخارجه

5 ـ له مجموعة من الدراسات والأبحاث السردية المنشورة في أشهر المجلات العربية (الآداب، مواقف، آفاق...)

6 ـ له مجموعة من النصوص القصصية والروائية المنشورة في الصحف والمجلات العربية المعروفة (الكاتب، الزمان، الاتحاد الاشتراكي...)

افتتاح شعري

أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني
محيي الدين بن عربي

الفصل الأول

رسائل الحب

- قال الرواي :

إن هذه الرسائل الخمس التي استوقفتني طويلا حين قرأتها، ماكانت لتخرج إلى الوجود، لولا أني رأيت فيها رغبة كاتب هذه الرواية في التعبير عن اللحظات التي كان يقضيها في كتابة روايته ذاتها، وما كانت تسببه له من آلام حينا وأفراح حينا آخر. وهي رسائل يمكن الاستغناء عنها. إذ يمكن قراءة أحداث الرواية، في غيابها، دون أن يؤثر ذلك في عملية التسلسل الحدثي، أو في عملية الاندماج معه، ولكن مع ذلك، فوجودها يفتح نافذة أخرى للإطلال منها على تلك الأحداث نفسها، بمنظور مختلف ورؤية جديدة، كما أنها تبين لنا مدى الصعوبة التي لاقاها الكاتب وهو يحاول القبض على الخطوط الكبرى التي تشكل بنيتها وجعلها تنسجم داخل بوتقة فنية متكاملة.

وهي، أي هذه الرسائل، قبل كل شيء وبعده أيضا، تبقى رسائل حب وجهها صديق لصديقه، لذلك تجب قراءتها والغوص في أعماقها لمعرفة مدى قوة الحب الذي يسري في طياتها.

رسالة الحب الأولى

أيها العزيز :

تحية فائقة :

أما بعد : لن أستطيع أن أتحدث لك عن رواية «وقت الرحيل» إنها رواية مثيرة كلفتني كتابتها كثيرا من الوقت، وكثيرا من القهوة السوداء وقليلا من التفسح حول أيامي الذاهبة إلى هناك، إنها رواية لاتحكي شيئا عني، ولكنها تقول مع ذلك، كل مايمكن أن أنطق به حول هذه الذات المتشظية بألم الغربة وبريق الجنون والرغبة اللامستباحة في معانقة جسد الأنثى المقدس واختراقه من الداخل، والتمعن في قسماته الخارجية الفاتنة أيضا، من هنا لايمكن لي أن أتحدث لك عما قد سجلته فيها، فالأحداث بالنسبة لي، ليست إلا وسيلة لاستمرارية الكلم، واستدراج الحكي ليعبر عن ذاته انطلاقا منها، والشخوص بقدر ماهي موجودة على أديم الورق، بقدر ماهي مختفية عن عيون المتطفلين الباحثين عن القبض على قسماتها، أما اللغة فلا أدري لحد الساعة، هل هي لغتي، أم لغة استعرتها من شخوص الرواية نفسها وتركتها تتكلم بأسمائهم واحدا تلو الآخر.

من هنا، أيها القارئ الصديق العزيز، فلن أضيف حرفا واحدا، عما قلته لك الآن حول هذه الرواية، هل هي حقا رواية؟ لست أدري! ولكني أعدك بأنني ما أن أنتهي من تحريرها كليا، حتى أمدك بها لأنني محتاج إلى أخذ رأيك فيها، قبل أن أرمي بها إلى أيدي الآخرين، أولئك الأحبة، الذين قد يجدون فيها مايسرهم أو قد لايعيرونها اهتماما يذكر، على كل، أتركك الآن، فالساعة قد أوشكت على الاقتراب من الواحدة والنصف ليلا، وأنا لم أهيئ بعد فراشي، علما أنّني مطالب في الغد بالنهوض باكرا، وأنا حتى أستطيع إتمام بعد مالدي من أعمال أدبية أخرى.

-مع تحياتي-

رسالة الحب الثانية

أيها الصديق :

تحية مخلصة ودودة :

أما بعد، أرجوك أن تغفر لي تأخري في الكتابة إليك، لعلك تقول في نفسك أنني لم أرد تحديد معالم روايتي لك، لأنني أستصغر رأيك، أو أتعاظم عليك، لا أيها الصديق الوفي، معاذ الله أن يكون هذا رأيي فيك، وأنت الذي تعرف جميع الصحف صولاتك النقدية البارعة فوق أوراقها، وإنما على العكس من ذلك تماما فأنا لحد الآن لم أنته من كتابة هذه الرواية التي تطاردها لعنة الآلهة، بالرغم من أن معالمها الكبرى واضحة تماما في ذهني، أو هذا على الأقل، مايبدو لي حاليا، ولكن ما أن أرفع القلم بين أصابعي، وأحضر أوراقي لأبدأ في تسجيل مايتوافد علي من أفكار حتى يتمرد القلم ويستعصي علي، وحتى تفر الأوراق سافرة ومتطاولة. ولكن مع ذلك، أستطيع أن أقول لك، إنني قد عزمت كل العزم على الإنتهاء السريع منها، ذلك أنها قد تركتني دون عمل أي شيء غير الإهتمام بها، بالرغم من أنني على يقين تام، أنها حتى ولو خرجت إلى الوجود، فلا أحد سيهتم بها أو يعيرها أية عناية، لأنها أولا لاتتحدث عن أي شيء محدد، سوى عن مغامرات، فتى، لاهم له سوى الانشغال بذاته، وبالكتابة، وإن كنت أرى شخصيا، أن هذا الفتى العربي، إنما يفعل ذلك ليخفي عن أنظارنا اهتمامه الكلي بالحياة في عمقها، ولحد اللحظة مايزال على ما أعتقد، لم يطمئن إلي بعد، ليحدثني عن كل ما وقع له في دار الغربة من أحداث، وإلى أن يفعل ذلك أستودعك أيها العزيز، وأعدك بالكتابة إليك من جديد كلما انتهيت من كتابة أي شيء في هذه الرواية.

- وإلى اللقاء قريبا

مع أخلص التحيات -

رسالة الحب الثالثة

أيها الحبيب

تحية أدبية خالصة :

أما بعد : أراك من خلال رسالتك هاته، تبدو غاضبا جدا مني لأنني لم أرد أن أحدد لك المعالم الكبرى لهذه الرواية اللعنية! وكيف تريدني أن أفعل ذلك؟ وأنت تعلم أكثر مني، أيها الناقد الحصيف، أنني لا أستطيع! أولاً لأنه لايمكن تحديد معالم رواية مهما صغر حجمها ومهما كانت الأحداث الي تتحدث عنها واضحة في ذهن كاتبها، فبالأحرى حين تكون هذه الأحداث مشتتة لايجمع بينها رابط ولايوحد بين أقسامها أي شيء مثل روايتي هاته، سوى أنها تتعلق بمسار شخص، لايريد أن يتعرف أحد على خباياه الداخلية، وإنما يترك لنا، أقصد لي شخصيا كل ما لاينفع في تحديد ملامح شخصيته الغامضة، مما يجعلني في حيرة من أمري، ومما سيجعل القراء حتما يغضبون مني، ويرمون بروايتي هاته، إن هم اقتنوها في سلة مهملاتهم أو يبيعونها لأصحاب الحوانيت القديمة المعنيين بشراء كل ماثقل وزنه وخفت قيمته، أو لبائعي الزريعة الكحلاء، أو ليست هذه هي الحقيقة؟ الحقيقة المرة التي نحاول نحن الكتاب إن سمح لي معشر الكتاب طبعا بالانضمام إليهم، التي نتغاضى عنها، لقد قرأت كل روايات نجيب محفوظ قبل نيله، على أية حال، جائزة نوبل، بعد أن اكتريتها من عند هؤلاء الباعة، ورجوتهم كثيرا ألا يمزقوها إربا إربا قبل أن أتممها كلها. أقسم لك على ذلك بوجه أمي...!

أعود إليك الآن أيها العزيز، لأقول لك، انتظرني في رسالة قادمة، لأحدثك عن بعض مايتعلق بروايتي« وقت الرحيل» التي أراك قد شغفت بها كثيرا، قبل أن تقرأ ولو حرفا واحدا منها.

هل يرجع هذا، إلى عدم مدي لك بخيوطها الكبرى؟

ـ وداعا الآن، وتقبل تحياتي ـ

رسالة الحب الرابعة

أيها القرين :

تحية مائية نارية :

أما بعد، رسالتك هذه المرة، كانت تحمل بشائر رضاك عني، ورغبتك الأكيدة في الصفح عن أخطائي اتجاهك، بالرغم من أنني على يقين تام، أنني ماتعمدت أن أقع فيما يجعلك تقلب لي ظهر المجن، إذ أنني لست مستعدا لأتلقى ضربات قلمك القوية، وأتركك تنزل بها كالعاصفة الهوجاء على أم رأس كتاباتي، التي لاهدف لها سوى تطوير ذاتها والدفع بنفسها في بحر الحداثة المتلاطم.

لهذا فأنا جد سعيد، بصفحك عني، وبسعيك لمعرفة مايجرى في ثنايا روايتي هاته من أحداث، حتى تستطيع أن تكتب عنها، وتقرب وجهة نظري فيها إلى القراء، وتدفعهم دفعا، كعهدي بك دائما، لاقتنائها والعيش في أحضانها، إلا أنني وللأسف الشديد لاأستطيع أن أقول لك شيئا عن هذه الرواية، على الأقل الآن، ذلك أن بطلها، إن كان لها بطل، أو إن أنا أبقيت عليه، قد أبى علي أن أخبرك بأيّ شيء يتعلق بحياته الشخصية ورفض رفضا لارجوع فيه، أن أطلعك على أوراقه الخاصة، التي هي في نهاية الأمر، تشكل صلب روايتي، وهو إذ يبلغك أطيب سلامه، لايرغب في أن تكتب عنه، أو أن تعرف أحدا عليه، وبالرغم من توضيحي له أسباب اهتمامك بهذه الرواية، التي هي في الحقيقة، كما تعلم، ليست إلا سجلاله، فإنه لم يغير رأيه، ولا ألان مواقفه المتعصبة تجاهك، لعله يعتقد أنك أحد الثقلاء! وإلى أن يحدث العكس، أتركك في رعاية حسنائك الصغيرة.

ـ والسلام عليك ـ

رسالة الحب الخامسة

أيها الزميل :

تحية مشاغبة سلاعبة.

أما بعد : حمداً لله، لقد لانت أخيرا نفسية بطل الرواية، أقصد روايتي «وقت الرحيل» ولولا تدخل الفتيات الموجودات داخلها معه، لما لانت نفسيته المعقدة هاته، فسمح لي أن أتحدث معك بخصوصها.

أول مايمكن قوله له في هذا الشأن، أن رواية «وقت الرحيل» هاته كنت قد أسميتها فيما سبق باسم «عرائس ماوراء البحر» وبالرغم من أن هذا الإسم جميل ورومانسي جدا، فإنني قد استبدلته باسم آخر، ربما تحت تأثير الرغبة الشديدة في أن أوحي للنقاد الأدبيين، لاسيما المهتمين منهم بالفن الروائي، بأنني أحسن أن أكتب نصا روائيا جديدا، يتناص مع نصوص عربية قديمة، هذا الاسم هو اسم «رحلة السندباد المغربي» ألا ترى معي أيها الناقد الألمعي، أن هذا العنوان موحٍ جداً، إذ أن أي ناقد يريد أن يقترب من روايتي أو أن يقاربها على الأصح، عليه حتما أن يبدأ يعقد مقارنة بين عملي هذا من جهة وبين الحكايات التي روتها شهرزاد، أو التي هي في الواقع قد رويت على لسانها، عن مغامرات السندباد البحري وأسفاره السبعة، إلا أن هذا الإسم هو أيضا، بالرغم من تناصيته الأخاذة هاته، وبالرغم من جماليته الفتانة، وإيحائيته البعيدة، فإنه لم يستقر طويلا كعنوان لروايتي المتحدث عنها، إذ على حين غرة ودون وعي مسبق مني حين كنت أتحدث مع أمي، وهي غالية عندي، التي مازالت تتأرجح في صدرها رغبة قوية في الذهاب إلى بلاد برة، على حد تعبير المصريين، لاسيما إلى إيطاليا، باعتبارها إحدى

أجمل البقاع الموجودة في الأرض، أن تذكرت أنا الآخر وقت رحيلي إلى سترا سبورغ والأيام التي قضيتها فوق ترابها وما وقع لي، أقصد عما وقع لبطل روايتي هاته فيها من أحداث، وبالرغم من أن هذا الزمن الذي يبدو الآن جد بعيد، فإنه مايزال عالقا يذهنينا، نحن الاثنان، البطل وأنا، ومازلنا نستعيده مرارا وتكراراً في أحلامنا، فقررت من ثمة أن أستبدل اسم الرواية مرة أخرى باسم آخر هو «وقت الرحيل».

هل يرجع ذلك أنني قد قررت الرحيل عن هذه الأرض أخيراً؟ بعد أن فضل بطل الرواية أن يبقى فيها، وأن أعود إلى ترتبي الأصلية التي خلقت منها وفيها، ربما يكون الأمر كذلك، لكنني أيها العزيز حين حاولت أن أعود إلى أديمها مرة أخرى ولو سائحا فقط، لم تستعفني أموالي على تحمل أعباء السفر،...

إن الحديث حول هذه المسألة يطول جداً، ولا أستطيع أن أضيف إليه في هذه اللحظات أي شيء، لأنني أحس بأن النوم قد فرض وجوده اللذيذ لا اللعين علي.

أودعك الآن على أمل اللقاء بك قريبا

- مع تمنياتي لك بدوام السعادة -

ملاحظة 1 :

أيها العزيز : لدي الحق دائما في تغيير
عنوان روايتي، ولناشرها الحق أيضا
في ذلك. فأجمل العناوين تلك التي لم نعثر عليها بعد!

ملاحظة 2 :

سبق لهذه الرواية أيضا، أن أخذ ت العناوين
التاية : «باب الجنة»، «عصفور الجنة»،
«دار الغربة» وبالرغم من أن الكاتب الضمني
قد أعلن عن هذه العناوين، في بعض حواراته
إلا أنه قد تخلى عنها هي الأخرى كذلك
ترى، ماهو العنوان الذي ستعرف به هذه الرواية؟؟؟

هوامش الفصل الأول :

1) ـ كتبت هذه الرسائل، في ليلة شتائية طويلة، ولم يكن بالقرب من كاتبها، سوى صوت فيروز، عصفورة العرب الذهبية.

2) مرارا كان الهاتف يرن، لكن الكاتب، كان يبدو مستغرقا في الكتابة، بحيث لم يكن في مقدور أي أحد، حتى من وراء حجاب، أن يخرجه من استغراقه العميق ذاك.

الفصل الثاني

وهـــج الظهيـــرة

-1-

في الذهن أشياء لاتريد أن تمحى بسهولة، الجسد عالق بمقعد في إحدى الطاولات، والفكر سابح في شتى الأمكنة، هناك الدار البيضاء، البيت يقع في أقصى ركن من الدرب، طبقاته ترتفع لتناطح السحاب، داخله فارغ من الأثاث، خيوط العنكبوت تتسابق لتحتل أركانه، هنا ستراسبورغ، المكتبة غاصة بالطلبة، عيونهم تحملق في الفراغ، لا أحد يأتي من أجل التثقيف فقط، الكل يبحث عمن يصادقه أو يخاصمه، حتى أنا، ابن الفقراء، كنت أسبح في عالم الأشباح، أصادق أمواتا قد انقضى زمنهم، أصفع هذا يصفعني ذاك، أقبل هاته، تقبلني تلك، يالها من سعادة حقيقية لاتتشكل بنياتها إلا في الخيال.

- 2 -

... وأنا غارق في قراءة كتاب «نقد العقل الخالص» للفيلسوف الألماني الكبير كانط، سمعت صوتا يناديني، صوتا ذكرني بوجودي وأعاد المكان الذي كنت جالسا فيه إلي، بعد أن فارقتني فترة من الزمن، التفت ناحية الصوت الذي كان محملا بشيء من الزهو والخيلاء، الصوت الذي لفظ اسمي وكأنه يلفظ شيئا عزيزا، وابتسمت حين قابلت عيناي صاحبه، إنه عبده، هذا الفتى المغربي الهزيل الذي تخلى الطعام عنه أو تخلى هو عن الطعام وإن كنت أراه حين تجمعنا في بعض الأيام مائدة واحدة يأكل بشهية تحيرني وتجعلني أتساءل كثيرا، كيف يمكن لمثل هذا البطن الصغير أن يحمل كل هذا الطعام؟ وكان في كثير من الأحيان يلاحظ حيرتي إلا أنه بكل تأكيد لم يكن يدري مصدرها.

- 3 -

حدقت فيه مليا حتى أدركت لماذا ناداني بصوت مرتفع بعض الشيء دون أن يراعي شعور الطلبة الآخرين الذين كانوا مستغرقين في المطابعة على مايبدو، أو أن يهتم بآداب المكتبة التي احتوتنا بين جدانها، لقد كان محرجا، وكان يريد مع ذلك أن يظهر بمظهر القوي الذي تخلى عن عقده التي عشعشت في دماغه، وأمام من ؟ أمام فتاتين فرنسيتين لم تكونا لتشعرا بأنه يعاني من شيء، فبالأحرى من الخجل! وأنه يريد إحداهما ليقضي معها ليلة من ليالي هذا الشتاء القارس، وابتسمت لما رأيته يستجمع شجاعته ويقدمني إليهما بعد أن ذهبت إليه، والحق يقال، أنهما كانت آية في الجمال وأن أي فتى جمعته وإياهما الصدف إلا وحدثته نفسه بالمبيت مع واحدة منهما، وجرنا الحديث بعيدا فناقشتنا كل شيء اللهم إلا ماكان يختلج في صدورنا فقد ظل نائما هناك، وإن كنت من جهتي أفصح عنه مرة تلو أخرى ببريق ينبعث من عيني، وأظن أن المعنية بالأمر، أدركت هدفي ورغبت هي الأخرى في العبث معي بعض الوقت، فلمحت لي بذلك وافترقنا على أمل اللقاء مرة أخرى.

- 4 -

ودعت صديقي الذي رافقهما، فقد كان طريقي مختلفا، حيث أنهم ذهبوا من جهة المكتبة العمومية بينما أخذت الطريق الذي يؤدي إلى الطعم الجامعي، فالساعة كانت تشير إلى الثانية عشر بالتدقيق، والبطن فارغ لم يذق شيئا منذ الصباح، كما أن الجو البارد جعل أطرافي تستلذ أن ترتعد من حين لأخر ولم يكن ليروقني هذا، فأسرعت بالمشي عل وعسى أن أقتل الرعدة السارية في جسدي دون أن يشعر بجريمتي أحد من المارة الذين زخر الشارع الكبير بأجسادهم المختلفة.

- 5 -

حين مررت بالقرب من المكان الذي يقطنه صديقي جلول شعرت بالحقد والبغض، لا أدري بالضبط لماذا تسكننا عواطف لانرغب فيها وتفرض نفسها علينا وكأنها من صميم تكويننا، فقد تمر مدة وأخال نفسي وقد غفرت لصديقي هذا زلته الكبرى وإساءته لي في وقت كنت في أمس الحاجة إلى إنسان يقف بجانبي، ولكن ما أن أمر بالقرب من المكان الذي احتوى جسده حتى يعود كل ذلك الحقد والبغض إلي.

أو لم يرم بأمتعتي في الشارع حين لم أجد مكانا أقطن فيه، أو لم يقل لي بالحرف الواحد : إن فرنسا لاتقبل إلا الرجال! وعليك أن تبرهن على رجولتك! آه منذ اليوم الأول تفعل هذا ياجلول، ياابن الخيرة، اقبلني في منزلك ليلة أو ليلتين ثم افعل مابدا لك، إنني رجل ولا كالرجال وأنت بهذا أدرى يا ابن أمي، ياابن أكثر من أب.

وبدون شعور مني صحت : حتى أنت يابروتس، الآن يموت قيصر. وبدأت أفلسف ماجرى لي معه وأحاول أن أجد له عذرا، فهو مهما فعل معي يبقى في آخر المطاف قطعة لحم قد نبتت في أرض عزيزة علي، وقد طال غيابي عنها حتى خلته دهرا، إنه ماكان يفعل معي ما فعل لو لا محنته هو الآخر، ومن يدري فقد تكون أعمق من محنتي وأشد مرارة، وعتبت على نفسي كثيرا واتهمتها بالأنانية فخفضت رأسها حياء وخجلا وعاهدتني على ألا تعود إلى طرق هذا الموضوع ثانية.

- 6 -

وصلت إلى المطعم الجامعي مبكرا بعض الشيء، فوجدته شبه فارغ سيما وأن هذا المطعم لم يكن يؤمه كثير من الطلبة الأجانب رغم أن كل ما فيه يغري بالمجيء إليه ابتداء من اسمه : "Esplanade" الذي

كان يثير في أشواقا لاعهد لي بها، وإن لم يكن يعني أي شيء محدد، على الأقل بالنسبة لي، فلم يسترع انتباهي أحد ممن كنت أعرفهم، وبدأت عيوني تجد في البحث عن شخص ما، يستطيع أن يمد لي يد المساعدة، فقد كانت جيوبي خالية من النقود، ولم يكن في حوزتي أي «تيكيت» أستطيع بواسطته أخذ وجبة الغذاء هنا، وقد كان في اعتقادي أن آخذه من عند عبده لما ناداني في المكتبة العمومية لولا وجود الحلوتين معه، هذا الوجود الذي ضيع علي هذه الفرصة، فعبده صديقي، بل قل إنه أخي فهو يسكن في نفس المكان الذي أسكن فيه حيث حجرات القصر الأثري، الجاثم وسط أحضان الغابة تجمعني به وبكثير من الطلبه القاطنين معنا هناك، زيادة على ذلك فعبده يفهمني كثيرا ويعرف إلى أي صنف من الخلق أنتمي ورغم كل ماكنت أفعله معه من هفوات فقد كانت نفسه كبيرة وكان يجد سرورا بالغاً حين يتخيل نفسه وقد عفا عن أخطائي التي كانت تجلب له بعض المسرات وإن كانت من نوع خاص، وكنت أنا الأخر أفهمه أو قل إني أخال نفسي فاهمه، فأجاري رغباته التي كانت تبدو لي في كثير من الأحيان رغبات ساذجة، ولكنها رغبات منبعثة من نفس طيبة لاتريد بأحد ضرا، ولكن أين هو الآن؟ أين أجده؟ بدون شك فقد ذهب إلى المطعم الآخر، مطعم "Paul Appel" فهو يموت في مأكولاته، لأنها أكثر شعبية من غيرها في المطاعم الأخرى، إنه المطعم الوحيد الذي يمكنك أن تتناول فيه طعامك إن لم تكن معك نقود ـ دون حرج ـ يكفي أن تغير الاتجاه، فبدل أن تلجه من الباب المعد للولوج، عليك أن تعكس الآية وتدخل إليه من الباب الخلفي الذي هو في الأصل معد للخروج، وحين تجد نفسك وقد أصبحت داخله، تقدم بهدوء، وبدون أدنى خوف : خذ «بلاطو» نظيفا واصطف مع الآخرين لتأخذ وجبتك كاملة، لاتنقصها سوى قطعة اللحم التي قد شددت

عليها الحراسة. وماذا يهمك أنت يا أبا الشمقمق، وقد ملأت بطنك بطعام شهي ولذيذ ومفيد لصحتك أن لاتأخذ قطعة اللحم هي الأخرى؟ ماذا يهمك إن لم تفعل ذلك وقد تعودت طيلة عمرك أن لاترى اللحم فوق مائدة أسرتك التي أنجبت عشرة من أمثالك إلا لماما، وأحانا قد تمر شهور عديدة دون رؤيته؟ ماذا يهمك إن تأكله مرة أخرى وإن كانت مختلفة عن سابقاتها لأنها في أرض أنت لاتنتمي إليها؟ وفكرت في الذهاب إليه، وعزمت أمري على فعل ذلك، ولكن قد ماي لم تطاوعاني، أبتا أن تلبيا نداء بطني الجائع...

ـ 7 ـ

استجمعت أطراف شجاعتي لما رأيت إحدى الفتيات تقف بالقرب مني، وتسألني بصوت نصف ناعس:

ـ كم الساعة؟

ـ الواحدة

ـ الوقت يمر بسرعة، هل تنتظرين أحدا؟

ـ نعم، صديقي، ولكن يظهر أنه لن يأتي.

وبعد فترة صمت قصيرة أحسست كأنها تريد أن تقول لي شيئا، ثم يخونها لسانها فتحجم عن الكلام، فشجعتها بعيني على الإفضاء بما يخالجها، فابتسمت إذ فهمت قصدي، ثم قالت: ويبدو أنك تنتظر، أنت الآخر، شخصا ما، ثم أضافت بخبث: إلا أنه على ما أعتقد لن يأتي.

جاريت ابتسامتها الحلوة بأخرى صفراء، ثم قلت مستغلا هذه الفرصة التي سنحت لي:

ـ إذن فلنستغن عنهما، ونذهب معا!
ـ ولم لا؟ هيا، فالمطعم قد أوشك على الأغلاق.
ـ ولكن....
ـ ماذا؟
ـ نسيت أن أشتري دفتر التيكيتات (Carnet de Tickets)
ـ لاتخف، معي تيكيت إضافي.

ـ 8 ـ

تنفست الصعداء، تساءلت كثيرا في شأن هذه الحياة، فقد يقع لك مشكل ما، ومهما يكن بسيطا فإنه يظل في نظرك ذا شأن، لأنه سيفقدك شيئا أنت في حاجة إليه، أو سيبعد عنك شخصا كنت تفضل أن يبقى بجانبك، ولكن على حين فجأة قد يأتي الفرج من حيث لاتعلم، يأتي من جهة الفراغ، يأتي بالصدفة، ولولا أنّ يد صديقتي أو التي أتمنى أن تصبح صديقتي، لمستني لما انتبهت إلى أننا قد وصلنا الدور لاختيار مايلذ لنا من الطعام، وفضلت أن أجاريها في اختيارها، ولم أندم فيما بعد على ذلك لأنه كان اختيارا موفقاً.

ـ 9 ـ

حين جمعتنا المائدة حدثتني عن نفسها، فهي فتاة باريسية الأصل (من ضواحي باريس) أتت إلى مدينة ستراسبورغ لتتابع دراستها في الموسيقى، وهي تقطن الآن في الحي الجامعي الذي يقع وراء الجامعة أي الحي الذي يحمل اسم (نوظورف) وهو حي علمت فيما بعد أنه جد هادئ ولايقطنه من الطلبة الثالثيين إلا القليل. وكان علي تبعا لتقاليد الحديث، أن أكلمها عن نفسي، إلا أنني فضلت أن أغير المجرى، وبدأت أتكلم لها عن مدى إعجابي

بالموسيقى الغربية وما تفعله في كياني لدى سماعها، ورغم أنني رأيت في عينيها الزرقاوين رغبة في معرفة هويتي إلا أنني تجاهلت ذلك، إذ ليس في الكلام عن حياتي مايبعث عن الزهو والخيلاء، وكأنها احترمت رغبتي وإن بدت لها غريبة بعض الشيء، فانسابت معي في الحديث الذي اخترته.

يعلم الله أني ما ارتحت من قبل لإنسان كما ارتحت لهذه الحورية، لذا فكرت في الاحتفاظ بها، ولكن كيف يتحقق لي ذلك، وهي كانت تنتظر صديقا قبل قليل؟ وكانت عينها تبحث عنه في كل بقعة، وهي لم تقبل دعوتي للغذاء معها إلا بعد أن تيقنت أنه لن يأتي، أضف إلى ذلك أنها تعتقد جازمة الآن في نفسها، أنني أنا الآخر كنت أنتظر صديقة لي، وأنني لم أدعها إلا بعد غياب الآخرى، فكيف أستطيع أن أسلها من براثن حبيبها كما تسل الشعرة من العجين؟ وكيف أقنعها بأنني خاوي الوفاض من جهة الحبايب؟ كيف أستطيع القيام بكل هذا وأنا لم أكلمها حتى عن نفسي؟

فكيف بدواخلها؟ أنا لست دون جوان على أية حال، ولكن فلأحاول، فالرياح قد تأتي بما تشتهيه السفن. بدأت أفكر في الخطة التي أنهجها مع هذه الصبية، وكأنها شعرت بدواخلي فقطعت عليّ حبل التفكير والوصال في ذات الآن، ورنت كلماتها في أذني كصوت الكنيسة حين يعلن وفاة حبيب، أخبرتني أنها على صلة بأحدهم منذ مايزيد على الثلاث سنين وأنها تحبه كثيرا، وطلبت مني أن أحتفظ بها صديقة حميمة، لأنها قد ارتاحت لي منذ النظرة الأولى، فأنا شاب مهذب وذو مستوى عال، ومن ثمة فهي لاتريد أن تفقدني، ثم نهضت مودعة بعد أن تمنت لي يوما سعيدا.

- 11 -

على الطاولة، كانت هناك ورقة، عليها اسمها ورقم هاتفها .

الإسم : ناطالي، رقم الهاتف : 16-10-60.

[قل لمن يجعل الترب تبراً بنظرة واحدة

ألا يمن علينا ولو من طرف خفي؟] (10)

- 12 -

انتظرت بعد الوقت، حتى توارت عن أنظاري هذه الحورية التي صادفتها في الوقت الضائع، ثم جمعت أطرافي ونهضت متثاقلا وغادرت المكان، ولست أدري بالضبط لما فضلت أن أمشي على قدمي كل المسافة الفاصلة بين هذا المطعم الجامعي وبين القصر الأثري الذي كنت أسكن في إحدى حجراته، ورغم أنها كانت طويلة ومتعبة، لعلي كنت أريد أن أنسى ماجرى لي، كنت أحاول أن أسلي نفسي وأقنعها بعبثية الحياة وعدم التفكير في الأناس الذي يصادفوننا ونحن نمشي في طريقها تائهين رغم أننا قد نرتاح إليهم حتى يصبحوا وكأنهم قطعة منا، ثم من يدري؟ فقد تقع هذه الحورية وإن أعربت عن حبها الكبير له في يدي ، فالحياة لها أسرارها الخاصة بها التي لاتفصح عنها من أول وهلة! ثم من تكون هذه الإنسانة حتى أفكر فيها كل هذا الوقت؟!!! إن لدي أعمالا مهمة تنتظرني، وعلى أن لا أنسى أني جئت إلى هذه البلاد أولا وأخيرا للدراسة، فكيف أترك لمثل هذه الأحداث التافهة أن تؤثر علي وتجعلني أبتعد عن هدفي الأساسي؟ لا، عليّ أن أنتبه جيدا وإلا كان مصيري مثل أغلبية الطلبة الذين سبقوني إلى هنا، فبعد أن كان يشار إليهم بالبنان وتضرب الأمثال باستقامتهم وتفوقهم في دراستهم، عكست الآية فصاروا رمز الانحلال وسوء التربية. والسبب واضح طبعا، كأس حمراء وفتاة جميلة، ثم انهيار مريع، ولكني مع

كل ماقلته لنفسي أو ماقالته هي لي، ظلت صورة الفتاة عالقة بذهني، فعزمت على أن أتلفن لها في أقرب وقت ممكن.

- 13 -

حين وصلت إلى القصر الأثري أو على الأصح "الشاطو" لأن هذا هو الإسم اللائق به، وهو الذي كان متداولا بيننا، صعدت إلى غرفتي دون أن أمر على صالة الإجتماعات، التي كانت مملوءة بهم بدون شك، فالضجيج المنبعث منها كان يصلني بأسرع مما كنت أظن، لعلهم كانوا يناقشون مشكلة يوم السبت، ويأخذون فيها رأيا حاسما، فهم قد أقسموا على أن ينتقموا لشرفهم المهان، إذ كيف جرأت سيدة الشاطو القوية على نهرهم وأمرهم بالصعود فورا إلى حجراتهم حتى يتسنى لها استقبال بعض معارفها في قاعة التلفزة التي كانوا متجمعين بها. وحين رفضوا الانصياع لأوامرها، لم تستح وأطفأت جهاز التلفزة، وتركت عيونهم تحملق في ظلام القاعة. ويا ليتها فعلت ذلك في يوم آخر، إنها قد قامت بجريمتها النكراء يوم السبت وفي اللحظة التي كان فيها مسلسل «دلاس» يبث، بل وفي الوقت الذي كان فيه جي - إر يفضي بإحدى غزلياته لفتاة سحرتهم برشاقتها، إن هذا الأمر لايطاق ولايمكن أن يمر بدون اجتماع خاص.

[بوركت الحياة، وبورك الأحياء فوق الأرض
لاتحت الطغاة، تحيا الحياة! تحياالحياة] (2)

- 14 -

لقد كانت أعصابي جد متعبة، وكان علي أن أقوم بتهيئ بعض فقرات العرض، الذي سأقوم به في الأسبوع القادم صحبة فتاتين، لم أدر ما الذي دفع بي إلى حشر نفسي معهما، وأنا لا أفقه في اللغة الفرنسية إلا ما أخذته في بلادي البعيدة، وهو شيء قليل

لايجلب نفعا ولايدفع شرا، ولكن مالي الآن والتفكير في كل هذه الأشياء، لم لا أدع الأمور تسير كما تشاء، وربنا حلال لها.

حاولت أن أستسلم للنوم الذي بدأ يداعب أجفاني، فقد كنت منهكا من كثرة المشي، ولكن طيفها اللعين، سرعان ماحضر، وبدأ يضايقني ويحرم علي لذة إغماض العينين، والسفر بعيدا، إلى عالم لايدري أحد كنهه، حاولت أن أتنصل من سيطرته، ولكن محاولتي باءت بالفشل، فقمت إلى أدراج مكتبي وأخذت ورقة وقلما وكتبت إلى أمي، أحكي لها ماقد حدث لي في سفرتي هاته، إلا أن الرسالة لم تعجبني فمزقتها وارتميت على السرير وما عدت أعلم شيئا بعد ذلك.

* هوامش الفصل الثاني*

1) ـ [قل لمن يجعل...] حافظ الشيرازي، ترجمة محمد نور الدين عن مقالة الدكتور : صلاح فضل، قراءة في ملحمة الحرافيش، مجلة العربي، العدد252، السنة 1979،ص : 45.

2) ـ [بوركت الحياة...] محمود درويس، قصيدة بيروت : ديوان حصار لمدائح البحر، دار العودة. ص : 99.

الفصل الثالث

ســطـــوة الأحـــلام

ـ حدث هذا في النوم ـ

لم يكن يعرف أنه يحب أمه حبا كبيرا، وأن صورتها الصافية، كالماء السلسبيل، حيناً، والثائرة في معظم الأحايين، لاتكاد تفارق وجدانه، هذا الوجدان الذي امتلأ كما لم يمتلئ غيره، بعشق الحياة والانغماس في متاهاتها اللامتناهية واللامحدودة، لقد رأى هذه الصورة المذهبة بماء الحناء، والحاملة لرائحة الجنة، تقترب منه، مقبلة، تضمه إلى ثنايا صدرها الحنون، وتعلن له أنها مصاحبة له في غربته، وأنها تسهر حين ينام، تحرسه من شياطين العالم اللامرئي، وتصنع له الحجاب الواقي كلما شعرت بحاجته العميقة إليه.

لقد رآها كما يمكن له أن يرى عروسا من عرائس الجنة، تختلط ملامحها الإنسية بملامح حمامة بيضاء لم ير أجمل ولا أبهى منها، ترى هل كانت أمه تحثه على إقامة السلام بين ذاته الصغيرة المتوثرة والباحثة لها عن مكان جميل في هذا العالم الجديد الذي أتى إليه، أم أنها فقط لبياض ونصاعة قلبها الكبير، قد تشكلت دون إرادة منهافي شكل حمامة؟ كل مايعرفه أنه قد سر سرورا كبيراً لرؤية وجه أمه الحبيبة، وما همه بعد ذلك، أكانت كما عهدها في السابق، امرأة، عادية، تطبخ الطعام وتغزل الصوف، كما كانت بنيلوب، وتنتظر عودة زوجها، أبي من عمله، أم قد تجاوزت طبيعتها البشرية البسيطة تلك وأصبح في مقدورها أن ترتدي ثياب الحمائم البيضاء حتى تستطيع قطع كل تلك المسافات التي تفصله عنها، وتأتي لرؤيته، وهو منزوٍ، كفأر صغير، في غرفته تلك.

إلا أن الذي حزّ في نفسه، وترك جرحا عميقا فيها، هو قدرته رغم كل محاولات أمه في جر الابتسامات، الواحدة تلو الأخرى إلى فمها، حتى تبدو، في نظره على الأقل، وكأنما السعادة تعشعش في دواخلها، على رؤية دمعتين تترقرقان، في عينيها الفاتنتين،

دمعتين، فيهما كل مآسي العالم مجتمعة، دمعتين لامرأة أرملة، غاب عنها الحبيب في لحظة جنونية خاطفة، وتركها تحتضن أفراخا صغيرة، زغب الحواصل، لا ماء ولاشجر.

وما أشعل لوعتها وزاد من لهيبها وأذكاه، هو أن الفرخ الأكبر فيها، قد رحل هو الآخر، بعيدا عنها. حقيقة، أنه لم يرحل إلى العالم الآخر كما فعل أبوه. ولكنه قد رحل جهة الشمال، بحثا عن العلم، على حد قوله.

لحظتها، لم أتمالك نفسي، أو على الأصح، لم يتمالك الشاب وقتذاك، الذي كنته، وهو يعيش في عالم الحلم لا اليقظة أن يقترب من أمه، وأن يقف أمام حضرتها البهية، وجلالها الأمومي الكبير، وأن يستحضر كل بنات أفكاره، وأولادها أيضا ليستخرج من أعماقه قصيدة، خيل إليه وقتها،أنها الأروع في كل ماقيل في موضوعها.

قال، والعهد عليه مايلي :

لاهنا، لقيت أنا
ولا حتى شي خديمة
لازواج بغى لي يتبنا
ولاحتى غير شي جميمة
درت الباسبور الأخضر
وكلت في خاطري
هاالزهر، بدا يبان ويكبر
أنا مانقرى غير في بلاد برة
نحصل ثم، على العلم
ونبني في سماي كَمرة
ونصول ونجول في كل وقت
ونفرح وننجح في أول دورة
ونتروج كَورية

تفهمني وتقدر المسؤولية
ايه يا أمي يا الحبيبة
راه حبك في قلبي مغروس
مايزعزعوا لا الأمريكان
ولا الروس،
غير نعسي وكوني هانية
ربي كبير والسماء
ديما راها صافية
والله ياالكبيدة لحنينة
ولدك مافي كرشكو العجينة
راه، والله العظيم
ونبيه الكريم
كيبغيك بزاف
وكيبوس رجليك الزوينة! (1).

ما أن انتهى من تلاوة هذه الكلمات المملوءة مرارة، حتى رأى وجهها يتغير ويأخذ طابعا لاعهد له به من قبل، هو أميل إلى الحزن العميق منه إلى شسء آخر، وما لبث أن لمح الدمعتين الذهبيتين تنحدران على خديها بهدوء، وبجانبهما وردة، أجل وردة، أقسم أنني رأيتها أنا الآخر وهي تنزل صحبة الدمعتين، لعل السبب واضح هو أن أمه هاته كانت هي أيضا تنتمي إلى قبيلة أجمل الأمهات.

ـ 2 ـ

ـ حدث هذا في النوم ـ

لقد رأى فيما يرى النائم أن أباه هو الآخر قد حضر، مزق كفنه الأبيض كقلبه وجاء من هناك، من عالم الأموات هذه المرة، ليراه هو الآخر، لقد سر الفتى لرؤية هذا الأب العزيز، يقاوم كل الأشياء

ويأتي. ابتسم لمرآه وقام وقبل رأسه ثم انحنى على يديه يقبلهما. لم يقل، كما يفعل الناس عادة، «حجارو يشدوه». بل قال، على أحجاره أن تمنحه بعض الحرية، ولو من حين لآخر، ليأتي عنده، إنه يريد أن يتبرك بدعائه، يريد أن يستمد من رؤية وجهه الوضاح بعض الشجاعة ليقاوم بها كل ماقد يعترض سبيل طريقه من شدائد. وقف الأب الجليل، كما يقف نسر عربي، قامة طويلة، وابتسامة كبرياء متعالية على شفتيه، يتمعن في فلذة كبده، التي أرغم على تركها وحيدة تصارع أهوال الحياة، وهو الذي كان يريد أن يضحي بالغالي والنفيس من أجل أن يحقق لها كل ماترغب فيه. وقف ينظر إلى ابنه الذي انتظر قدومه طويلا، فجاءه بعد ثلاث بنات. ذبح الكبش ذا القرون الطويلة، وأقام العرس البهي، ووزع الصدقات بلا حساب، فرحة بمجيئه ذلك. فلما بدأ يشتد عوده، ولما بدأ يتخذه صديقا له في الحياة، جاءه الموت فجأة، فاضطر لتركه في أيدي الحياة لتفعل به ماتريد. ولم يجد بداً من جعل روحه ترفرف عليه حينا بعد حين، وتتبع ولو من بعيد مسيرته في الحياة، نظر الفتى إلى أبيه مليا. لقد اشتاق إليه، كان كلما تذكر رحيله الرهيب إلى الدار الأخرى، التي لارجوع منها، يبكي، يستحضر كل الأوقات الجميلة التي كان يقضيها معه، ويعيد تجلياتها واحدة تلو الأخرى، لعله يحظى من خلال هذه الاستعادة ولو بنسيم روحي منه، فيرتاح قلبه الظامئ إلى عطف أبيه ولو قليلا ويشعر بتوازنه النفسي الذي يمكنه من متابعة طريقه في الحياة كما يجب. لهذا فحين رأى أباه، في هذه المرة، يأتي إليه من جديد، وهو يعيش بعيدا عن وطنه، لم يتمالك نفسه، مثلما حدث له، حين زارته أمه، من أن يبكي، وأن يترك ذاته حرة، تخاطب وجدانها كما يحلو لها، وتبدع في إنشاء القصائد وإنشادها كيفما شاءت لها الأهواء ذلك. وكانت من جراء ذلك كله، ولادة هذه القصيدة الزجلية، التي سيقرأها بعد وقت طويل على إنشائه لها على صديقه عبده.

قال والعهد عليه مايلي :

إيه يابا لحبيب
غبت وتركتني غريب
في هاذ الدنيا الصعيبة
لامال عندي...
قوي ومرسي.
نقرأ بيه وحدي
وكون بْحال ولاد الدريبة
ونديرِ
همة وعز لنفسي
... ولأمي الحبيبة
ولخوتي الصغار...
آه... يابا العزيز
شحال أنا تعذبت
كثير...
باش نقرأ ونكون كبير!
وتفرح بي بزاف
حتى وأنت في قبرك
حتى وأنت في قبرك
حتى وأنت في قبرك (2).

حين انتهى من قراءة هذه القصيدة، كان الأب، أو على الأصح الطيف الذي يمثله، يتراءئ له، وقد امتلأت نفسه بهجة وحزنا في ذات الآن. البهجة كانت ناتجة عن شعوره بمدى مقاومة ابنه لكل مشقات الحياة والرغبة في الانتصار عليها. أما الحزن، فكان يبدو، ناتجا عن الضعف الذي يعيش فيه هذا الابن، والوحدة التي يشعر بها، حين غاب عنه أبوه، وتركه ولما يستوي عوده بعد، يتخبط في

مدلهمات سبل الحياة، دون أن يحمل مشعلا وضاء يساعده على الابصار الجيد وهو يلجها، سوى مشعله الداخلي المنبثق من معاناته الصغيرة ذاتها، وكي لايزيد من عذاب ابنه المتظاهر أمامه بالقوة والجلد، ابتسم في وجهه، مشجعا إياه على التحمل والمقاومة، وعدم الاستسلام للظروف مهما تعنتت وحاولت أن تقسو عليه، ابتسم الفتى في وجه أبيه، وقبل يديه من جديد. شعر بقلبه يهتز بقوة، وبالأرواح تحيط به كل جانب، وغشيه سديم لانهائي، لم يستطع أن يتخلص من سطوته، إلا حين صاح الديك ثلاثا، معلنا قدوم الصباح.

ـ 3 ـ

ـ حدث هذا في النوم ـ

لقد رأى نفسه وقد تحول إلى عصفور صغير، عصفور أزرق، لم يسبق له أن رأى من قبل عصفورا أجمل أو أبهى منه. عصفور يحسن الطيران والتحليق في الأعالي، يحسن التغريد كأروع ما يكون التغريد. عصفور صغير، في السماء يطير، كما يقول أحد الأناشيد التي حفظها في المدرسة الابتدائية أيام كان تلميذا بها. لقد رأى نفسه، وقد كلفه زعيم العصافير بأن يحضر جوهرة نادرة إلى القرية العصافيرية العظيمة، إذا أراد أن يتزوج بابنته الفاتنة، العصفورة الخلابة زمردة. ولم يجد بدا من قبول طلب الزعيم، باعتباره زعيما لقرية العصافير الذي لايستطيع أحد أن يخالفه رأيا أو أن يعصي له أمرا من جهة، وباعتباره والد العصفورة الحبيبة التي يذوب عشقا فيها ويشتاق أيما شوق للدخول بها، من جهة أخرى. كان لابد له من أن يغامر، ولو حتى بحياته من أجل أن يصل إلى تحقيق هدفه.

ذهب إلى عشه المنعزل في إحدى أعلى الشجرات العظيمة الممتدة في أرض القرية، شجرة فرعها في السماء، لكن جذورها تنغرس في عمق أعماق الأرض. ثابتة كما لو أنها خلقت مع الأرض في لحظة واحدة. بقي بفكر في كيفية العبور إلى الأرض التي توجد فيها تلك الجوهرة النادرة يعرف أن الأمر صعب وجد خطر. ولكنه يعرف أيضا أنه لن يستطيع أن لايفعل ما كلف به وإلا ضاعت الحبيبة وضاع معها الشرف أيضا. وأصبح مجرد عصفور لايساوي شيئا. تشجع، وقاوم الخوف الذي داخله، خصوصا وهو يعلم أن عليه قطع سبعة بحور عظام قبل الوصول إلى تلك الأرض، وأن جناحيه قد تخذلانه بين لحظة وأخرى، فيسقط شهيدا ضمن شهداء الحب الكبار. ذهب عند أمه العجوز ليودعها، فوجدها تبكي، لقد علمت من الجيران بما كلفه به زعيم القرية. الغريب في الأمر أن أمه هاته لم تكن تنتمي إلى جنس العصافير. بل كانت تنتمي إلى جنس الحمام. إنها حمامة بيضاء، تبدو عليها بقايا جمال فاتن، وقد اعتقد، في البداية، حين بدأ في عملية التميز بين جنسي العصافير والحمام، أن هذه الحمامة البيضاء، لايمكن أن تكون أمه الحقيقية. لعلها وجدت البيضة التي كان يوجد فيها، منغرسة في عشها، فحضنتها، فلما ولد، اعتبرته ولداً لها. لكن الأيام أكدت له خطأه المنطقي هذا. فهذه الحمامة التي بلغت من الكبر عتيا، هي أمه الحقيقية، وقد ازداد عجبه كثيرا حين علم أن أباه هو الآخر، لاينتمي إلى جنس العصافير أيضا، ولا إلى جنس الحمام حتى، وإنما ينتمي إلى جنس النسور. كان أبوه، كما تحكي له أمه، نسرا عظيما، تخشاه كل نسور قريته ونسور القرى المجاورة لها، وذاع صيته في قوة البطش بخصومه، كما ذاع صيته في قوة تأثيره على الإناث من كل الفصائل الطيورية. لهذا، كانت النسور تخشاه في العلن، لكنها كانت تكيد له المكائذ في السر. ولما أغرم بها، أي بهذه الحمامة

البيضاء التي ستصبح أماً له، غارت منه النسور وذهبت إلى زعيمها تشكوه إليه باعتباره قد ارتكب ذنبا لاغفران له، في اتخاذه زوجة له من غير جنس النسور، فحكم عليه الزعيم بالسجن من جراء فعلته تلك، ولو كان طليقا الآن، لساعد ابنه العصفور الأزرق هذا، في إحضار الجوهرة النادرة. خصوصا وأنه قد تعود على قطع هذه البحور السبعة مرة في كل سنة. قبل العصفور الأزرق أمه، وحثها على الصبر، ودعاها لعدم البكاء على فراقه، فهو حتى ولو كان عصفوراً صغيراً، فإن له قلب نسر جبار، ورحابة صدر حمامة عاقلة. ارتدى العصفور أحسن ملابسه، ونفض عنه غبار الخوف، واستعد للطيران الطويل، وما أن كاد يحرك جناحيه، حتى لاح له طائر عظيم، يملأ عليه الفضاء. ولما حقق فيه، خيل له أنه يعرفه. وما أن أراد أن يتحقق من ذلك، حتى سمع أمه الحمامة البيضاء تهتف به مبتهجة : ـ لقد جاء أبوك، لقد جاء أبوك!

سر العصفور بوالده النسر أيما سرور، وفرح بولده العصفور أيما فرح، حدثه العصفور عن المهمة المنوطة على عاتقه، فما كان من النسر إلا أن طلب منه أن يمتطي ظهره. فعل العصفور ما أمر به النسر، وما أن استوى فوق ظهره، حتى حلق النسر بعيدا في الأعالي، متوجها صوب البحار السبعة. لكن ما أن وصلها حتى طار العصفور من على ظهره، وحلق معتمداً على نفسه. وبدل أن يغضب الوالد من ولده على فعلته الجريئة تلك، سر بها، وأعجبته شجاعة هذا الولد. بقي يراقبه عن قرب، مستعدا للتدخل في أي لحظة يشعر فيها أن ولده معرض للخطر. قطعا البحر الأول، قطعا البحر الثاني، قطعا البحر الثالث، قطعا البحر الرابع، قطعا البحر الخامس، قطعا البحر السادس، لكن ما أن اجتاز البحر السابع، حتى شعر العصفور الأزرق بالدوار. تعبت جناحاه، جف ريقه، دارت الأرض في عينيه، بدأ يترنح ذات اليمين وذات اليسار. حاول الأب

النسر أن يتدخل لإنقاذه، لكنه لم يجد الطريقة الملائمة لذلك. بدأ العصفور الأزرق يهوي قليلا قليلا، رأى فيما كان يراه البحر يفتح فاه لابتلاعه، قاوم من جديد، ظهر له وجه حبيبته، العصفور الفاتنة زمردة، تشجعه على المقاومة وتحثه على التحدي، حاول من جديد أن يصعد إلى الأعلى، بدأ فعلا في الصعود، بدأ يرى اليابسة جد قريبة منه، آه لقد وصل إليها، الجوهرة النادرة تتجلى له، أجل إنه يبصرها. هاقد حملها بين منقاريه، أبوه النسر بجانبه، هاهو يعود من جديد إلى البحر، ويبدأ رحلة العودة.

ـ 4 ـ

كانت الشمس قد اعتلت كبد السماء، حسب التعبير العربي القديم، لما نهض نوري من فراشه، وبدأ في تهييء فطوره. وما أن انتهى من ذلك كله، واستطاع إسكات جوع وعطش بطنه لحين. حتى بدأ في البحث عن كتابين لتأويل الأحلام وتفسيرها. الأول للفقيه القديم ابن سيرين، والثاني للفقيه الجديد فرويد. لقد حاول أن يجد شرحا، إن علميا أو حتى غيبيا، لما شاهده في أحلامه. لقد حاول أن يجعل من هذه الأحلام قوة تدفعه إلى الأمام، وتخلق منه رجلا آخر، تخلق منه رجلا يعيش في بلاد أوربا بقلبه الشرقي، وعقله الغربي، ويتجاور كل المطبطات التي قد تعترض طريقه، تخلق منه رجلا قادرا على إبداع حياته من جديد، وإعادة تشكيلها كما يريد هو، لاكما يراد لها أن تكون.

ـ 5 ـ

بحث عن الكتابين بجد وعزيمة لاتكلان، لم يجد أي كتاب منهما في مكتبته الصغيرة، تذكر أنه قد تركهما هناك في أرض الوطن، في غرفته الصغيرة المملوءة بأنواع الكتب حتى آخر شبر فيها. لم

يجد هنا سوى كتاب صغير الحجم، قد وجده ذات يوم عند صديقه عبده، فأخذه منه على سبيل التفكه، هاهو الآن قد احتاج إليه. كتاب صغير، يحمل هو الآخر اسم «تفسير الأحلام» (3). فتحه وبدأ في تقليب صفحاته. وجد فيه أن رمز الحمامة البيضاء يعني : حب السلام والرغبة في حصوله، وهذا أمر أصبح معروفا ومتداولا في كل بقاع الدنيا، منذ أن رسم - پاپلو بيكاسو حمامته الشهيرة ذات اللون الأبيض. كما وجد فيه إضافة إلى ذلك أن رمز الحمام بشكل كلي له دلالا ت متنوعة، يمكن الإشارة إليها كالتالي : «الحمام إن كان يطير إليك أو كان جالسا عليك، أو كان موجودا في ضوء الشمس، فهو حلم طيب جدا يبشر بالخير والسعادة وحسن الحال، وإن كان يطير مباعدا عنك، فإنك تفكر في شخص بعيد عنك، وإن كان يطير مبتعدا عنك، فإنك تفكر في شخص بعيد عنك، وإن كان الحمام ميتا أو تحاول عبثا الإمساك به فإنه علامة فشل». أما رمز النسر، فلم يجد له دلالة في هذا الكتاب، بل لم يجد حتى مجرد الإشارة إليه. وإن كان يستطيع ببساطة أن يمنحه دلالة معينة لاتكاد تخرج عن دلالة القوة والسمو والكبرياء، كما هو متداول لدى كل الناس وفي مختلف الثقافات الإنسانية. وجد فيه كذلك أن رمز البحر يعني مايلي : «البحر الهادئ الصافي في المنام، يدل على ملك عظيم قوي فهو للموظف وزيره وللوزير رئيسه، وللتاجر متاعه، وللتلميذ أستاذه، وللعامل رب عمله، فمن شرب منه في المنام سعد أو تعلم بقدرما شرب، وطالت حياته بقدر ما بقي من الماء، فإن عبر البحر سابحا غنم مال عدوه ونجح في حياته وشفي من مرضه إن كان مريضا ومن رأى أنه غرق في البحر، غرق في متاع دنياه». أما رمز الجوهرة التي كان يبحث عنها، وهو متجل في صورة عصفور أزرق، فهي تدل على «بداية طيبة في الحياة» على حد ما وجده مكتوبا في هذا الكتاب. لم يرد أن يبحث عن رمز

العصفور، فهو يعلم أن يشير إليه. فإذا كان العصفور يغرد، فهو أيضا يكتب الأشعار ويقوم بإنشادها لذاته وللآخرين.

وإذا كان العصفور جميلا، فهو يعلم أن صورته تغري الفتيات وتدفعهن إليه واحِدة تلو الأخرى. وإذا كان العصفور أزرق اللون، فهو على علم أكيد أن أحب الألوان إليه هو هذا اللون بالذات، وأنه كثيرا ما ارتدى الثياب الحاملة له. أغلق الكتاب، ولم يكتف بذلك، إذ سرعان مارمى به بعيدا في أقصى الغرفة. ثم ارتدى ثيابه وخرج. كانت الثياب التي ارتداها جميلة جدا ومثيرة جدا. وكانت في لون البحر. كانت زرقاء. أجل كانت زرقاء!

هوامش الفصل الثالث

1) ـ يبدو أن سارد هذه الرواية من أشد المعجبين بالشعر المكتوب باللهجة المغربية ـ وهو يكتبه من وقت لآخر.

2) ـ يبدو أيضا أن السادر قد أعجبته لعبة الكتابة باللهجة المغربية، فأضاف شعرا آخر مكتوبا بها. فهل وفق في ذلك؟ علم الأمر كله عند القارئ.

الفصل الرابع

صخرة الألم

- 1 -

شهادة الباكالوريا !

أرقـــام الناجحـــين
125ـ 126ـ 135ـ 136ـ 146ـ 155ـ 165ـ 166ـ 176ـ ....

ها إني الآن قد قبضت عليها بين يدي، حقيقة أن الكل قد توقع أن آخذها، فقد كنت معروفا بحبي للدراسة وباجتهادي فيها، ثم إن النقط العالية التي كنت أحصل عليها، لم تكن لتترك للآخرين مجالا للشك في نجاحي، ولكن مع ذلك كنت خائفا، أجل لم أشعر في حياتي كلها بمثل هذا الخوف الذي احتواني حين نظرت إلى السبورة السوداء التي كانت تحمل أرقام الناجحين، ولم يهدأ قلبي من اضطراباته إلا بعد أن تركزت عيناي على رقمي المكتوب فيها، هذا الرقم الذي أحببته كثيرا، وجعلته بداية لانطلاقي في هذه الدنيا الواسعة وربوعها، فبالرغم من وضعي المزري إذ أنني أنتمي إلى أسرة فقيرة، فقدت الأب منذ مدة تزيد على السبع سنوات، ولم يعد لها بفقده عائلا يعيلها سوى ماتأخذه الأم من النفقة التي قررتها لها الشركة التي كان يعمل بها هذا الأب، فقد كنت راغبا في متابعة تعليمي الجامعي خصوصا وأن كثيرا من أصدقائي المقربين عزموا على ذلك، ولما اختارتني الثانوية التي كنت أدرس بها ضمن مجموعة من خيرة تلاميذها، ومنحتني ملفا لمتابعة الدراسة في فرنسا، ترددت بادئ الأمر في قبوله لولا إلحاح صديقي سي محمد علي ووعده لي بأنه مرافقي إلى هناك، فكيف

أخيب ظنه، وهو الذي كان كظلي، لايفارقني سواء في السراء أو الضراء، ثم لماذا أحرم نفسي من هذه النعمة التي هبطت علي من السماء؟ صحيح أن الدراسة هناك صعبة وأن ظروف المعيشة غالية، كما أن أزمة السكن قد تفاقم أمرها، ولكن هذه هي الحياة، صراع من أجل البقاء وحرب مستمرة من أجل إثبات الوجود، إن لذة الهناء لاتحلو إلا في خضم الشقاء، وإن نشوة النصر لاتأتي إلا بعد ملاقاة الأهوال، أضف إلى كل هذا أنني قد عشت سنوات كثيرة وأنا أحلم بملاقاة الغرب، هذا العالم الذي سحرني من خلال ما كنت أقرأ عنه وعن كتابه العظام، وما كنت أسمع عن جمال بناته وعن آداب أهله، أجل سأذهب إليه، وغرست الفكرة في ذهني وسرعان ماعشعشت فيه وباضت وأفرخت بسرعة غريبة حتى أصبح السفر إلى هناك هو شاغلي الوحيد، ولم يمر إلا وقت قصير حتى هيأت جميع الأوراق المطلوبة، وجاء اليوم السعيد الذي تسلمت فيه جواز السفر...

-2-

... آه ها أنت الآن بين يدي، أيها الكتاب السحري، أنت هو كلمة السر، بك وحدك نمر من بلد لآخر، نجتار عوالم مختلفة، بواسطتك نعانق العرب والعجم ونذهب بعيدا، أنت لم تخلق من ورق بل من رموز خالدة، في ثناياك صوت الآلهة وقوة أفعالهم، أنت الذي أهديت للعرب سندبادهم المغامر، وبعث لليونان أوديسهم، وجعلت الحضارات تلتقي وتتلاحق، لولاك ماخرج إنسان من أرضه، ولا فارق طائر وكره، بك بنيت أسر وكان قد أصابها البلى وبك أيضا تشردت أخرى...!

أنت بين يدي. ها أن صورتي قد غرست فيك، وها أن اسمي قد بث

في سنوات عمرك الخمس، ها أنا قد أصبحت عائشا فيك وأنت عائش فيّ. كلانا خل للآخر، لا أنا أستطيع الذهاب بدونك ولا أنت تستطيع الذهاب بدوني، أنا أنت وأنت أنا، ترى هل نحن روحان قد حللنا بدنا؟ من يدري قد يكون الأمر كذلك!

جعلت الجواز الأخضر في جيبي الأيمن، وتوجهت إلى البيت، ولا أدري هل أنني كنت أمشي كعادتي دائما أم أن مشيتي قد تغيرت هي الأخرى، فقد شعرت بأني أكاد أن أرقص في عرض الشارع الكبير، وخلت أن جميع الناس ينظرون إلي ويهتفون : آه! سعيد هذا الفتى فقد حصل على جواز سفر...سفر.سفر.سـ..ف..ر..

-4-

أجل لقد كنت جد سعيد، بل إن سعادتي لم تكن تقدر في هذه اللحظة بالذات بأي ثمن، كنت أظن نفسي وقد أصبحت أنتمي إلى عالم آخر، عالم لم أولد فيه مطلقا، وقد لا أعيشه مستقبلا، عالم كله رفاهية وحب وأسفار متعددة، عالم أعانق فيه وجه حبيبتي الغائبة في ظلمات أحلامي، من يدري ماقد تأتي به أيامي المقبلة من أحداث؟ قد يتحقق كل هذا، وقد أظل طول عمري أبحث عنه، علي أية حال، هناك في فرنسا قد أقضي لحظات ولو قليلة فيه، علي إذن أن أمارس كل ماكنت محروما منه هنا، أن ألعب التينيس وأركب الخيل وأعاشر فتاة جميلة.

-5-

علت الابتسامة وجهي وأنا أطرق باب منزلنا،...

في الداخل بدأت أناقش مع أمي كيفية تهييء النقود الكافية لسفري إلى فرنسا، ورغم أن الوالدة قد وعدتني بأنها ستزور بعض معارفنا لتدبير المبلغ المطلوب، فقد كنت واثقا من خيبتها في

الحصول عليه. حقيقة أن جل معارفنا أغنياء، يملكون الكثير... وفي استطاعتهم مد يد المساعدة إلينا ولكن لعنة الله على الحسد!

- 6 -

إن الحسد قد زرع في صدور معارفنا منذ أن بزغ نجمنا في دنيا الدراسة، فأخي الصغير مازال يتابع دراسته بنجاح... والأخ الأكبر منه سنا قد نجح هذا العام بميزة حسن، في حين أن أختي التي تكبرني قد توظفت أخيرا، أما العيال الصغيرين بالتعبير المصري فهم الآخرون يقاومون في صلابة لاتلين...

هذا الصمود في جه طغيان الحياة، كان من المفروض، أن يدفع بمعارفنا إلى تشجيعنا بدل إظهار الحسد لنا في كثير من المناسبات. هل أن الدراسة جليلة القدر إلى هذا الحد، أم أن فاقدها هو الذي يشعر بقيمتها خصوصا إذا كان يتوفر على متاع الدنيا، ولم يحقق فيها هي بالذات وجوده؟ قد يكون هذا صحيحاً، سيما إذا رأى من هو دونه مالا وجاها قد فاقه فيها وبزّه وبين له ضعفه المكنون وراء لمعان بريق الذهب والسلطة المزعومة...آه إن الإنسان مليئ بالعقد، إنه لايحب إلا الشيء المستعصي عليه، لايركع إلا للشيء الذي استعلى على قبضته، وكم يحتقر الأشياء التي تأتيه بسهولة وتحاول خطب وده. لو قدر لمعارفنا أن ينجحوا في دراساتهم وأن ينالوا شهادات عالية، لما أحسوا بقيمة ماحصلوا عليه، ولكن بما أن الأمر قد صار على عكس ذلك، فقد أصبحوا شديدي الحساسية تجاه كل ما يمت إلى هذا العالم الذي تخلى عنهم وتعالى على مقدراتهم، وتحولوا من حيث لايدرون إلى أعداء لكل من يتخرج منه، لأنه يذكرهم بهزيمتهم فيه... لهذا لم أكن واثقاً في مساعدتهم لي، خصوصا وأنا أحاول أن أرتقي الدرجات العليا من سلمه، وكم حاولت أن أشرح لأمي ذلك إلا أنها أصرت على رأيها، وسخرت من أفكاري المريضة، بل إنها اتهمتني بالغرور

ومحاولة التعالي على أقربائنا وعدم طلب العون منهم، ومن يدري فقد تكون صادقة في حدسها، ويكون ما أشعر به تجاه هؤلاء الناس، هو نتيجة حسد لهم على ما أنعم الله به عليهم من ثروة وخلو بال، وأني حاولت أن أعكس الآية ليس إلا...

ـ 7 ـ

لكن الأيام أكدت صدق دعواي، فقد عادت أمي تحمل هزيمتها معها، ومازلت لحد الآن أرى دموعا ساخنة في عينيها المتعبتين، كلما نظرت إليها، دموعا لم ترد أن تنزل بسهولة كي لاتذل إنسانة شقية أمام أبنائها، ولم أعر الأمر أي اهتمام، فقد كنت أتوقعه، وبدأت أروض نفسي على ترك فكرة السفر ومتابعة الدراسة هنا في أرض أجدادي، وبدأت أحاول غرس هذه الفكرة في ذهني، إلا أنه كان قد أغلق أبوابه، وأصبح يرفض أي زائر غريب، يرى فيه شخصا قد يعكر صفو راحته، فأصبح حالي كالزوجة المرهونة لاهي بالمطلّقة فتبحث لها عن زوج جديد يشد من أزرها ويشبع رغبتها في الحياة، ولاهي بالمتزوجة المتمتعة بحقوقها التي وهبتها لها الطبيعة والمجتمع، ولكن مع كل هذا، فقد كنت أذهب الأحزان عني وأترك الأمور تسير في الاتجاه الذي تراه...

[تعز أيها القلب الكئيب وكف عن الشكوى، فوراء الغيوم لاتزال شمس مشرقة] (1).

ـ 8 ـ

...أجل فوراء الغيوم لاتزال شمس مشرقة، إذ فجأة حدثت المعجزة، فقد عاد ابن عمي مروان من إيطاليا دون سابق إنذار، ففكرت في أنه مساعدني دون أدنى شك في ذلك؟ ألأنّه كان رفيقي طيلة الفترة التي كان فيها بلا عمل؟

وأني كنت أعامله معاملة الأخ الحبيب، فأشتري له، رغم قلة ذات يدي، ما كان يحتاجه من سجائر، وأجول به أحيانا في قلب مدينتنا لأطلعه على مآثرها... وأدخله في بعض الأحايين صحبتي إلى قاعاتها السينمائية دون أن أشعره بأني قد أديت عنه ثمن التذاكر، أم فقط ياترى لأني كنت أعلم علم اليقين أنه يختلف بطبعه عن بقية الأقارب، وأنه لم يحس رغم معاناته المتعددة أيام بطالته بأننا قد مللنا من وجوده معنا، لذا كان يعزنا ويحس بأنه قد صار واحدا منا، ومن واجبه طبعا وقد أصبح المال يتدفق من بين أنامله أن يساعدنا؟ ربما...

ـ 9 ـ

فعلا... وألف ... فعلا إنه الإنسان الذي بعثته الأقدار في هذا الظرف الحرج لإنقاذي، فما أن زارنا حتى قدم لي ماكنت أحتاج إليه من نقود لسفري إلى هناك، لا أدري من أخبره بأني عازم على السفر إلى أوربا وبأن الحائل بيني وبين هذا السفر هو قلة ذات اليد، قد تكون أمي، فمن غيرها تسمح له عزة نفسه بأن يطلب من الآخرين مساعدته، مهما كان هؤلاء الآخرون قريبين منه؟ من غيرها يفعل ذلك؟ بالتأكيد لا أحد. إن إخواتي قد تربوا على حب ذواتهم، والترفع عن كل ماقد يجرح كبرياءها، أو يمس عظمتها بسوء، فهم لن يفكروا في ماقد يقدمه ابن عمي هذا لي من خدمات، ثم إن هم قد فكروا في ذلك فإنهم عاجزون لامحالة عن شرح وضعي له.

أمي هي الوحيدة المؤهلة لأخباره بأمري ومحاولة دفعه لمدي بما يلزمني... سيما وأنها تعتبره مثل ابنها، كما أنه يحترمها كثيرا، ويكن لها حبا كبيرا، ربما لم يكنه حتى لوالدته، فهو لن ينسى أنها قد وقفت بجانبه حين تخلى الآخرون عنه وأن بيتها قد أوى جسده

لما لفظه بيت أبيه، إلا أنه رغم إلحاحي عليه لأخباري عن الذي حدثه بأمري، فقد صمم على عدم النطق بإسمه واكتفى بالابتسام. ولم أعد إلى سؤاله مرة أخرى. ولم أسأله؟ ألا يكفي أنني قد حققت غايتي، وأنني بعد أقل من أسبوع سأكون هناك، في أرض بنات عيسى بن مريم؟ ألا يكفي هذا؟ نعم يكفي وزيادة.

ـ 10 ـ

وفي هذا الوقت المتبقي لي في هذا البلد الذي أنجبتني تربته، التقيت بصديقي سي محمد أزيد من أربع مرات، وكان يبدو عليه أنه قد تراجع عن رغبته في متابعة دراسته خارج الوطن، وأن أسرته قد نصحته بأن يبقى هنا، في الأرض التي يعرفها جيدا، ويعرف أبناءها، وحذرته من مغبة الذهاب إلى هناك، وها قد جاء الآن عندي ليبسط لي وجهة نظره وليعلمني بقراره الأخير.

ـ إذن فأنت لن تذهب.

ـ نعم، ما الداعي إلى السفر، والدراسة موجودة هنا؟

ـ معك حق، مالداعي إلى كل هذا التعب.

ـ أتسخر مني يانوري.

ـ كلا، فأنا لم أتعود ذلك.

ـ ولكنك تفعله الآن.

ـ اسمع ياسي محمد، دعنا نبقى أصدقاء، خصوصا وأنت تعلم،،،

ـ أعلم أنك ذاهب إلى فرنسا!

ـ بالضبط، هذا ما أقصده، لنفترق أصدقاء

ـ أفهم من كلامك أنك مصر على الرحيل.

ـ أجل ليس منه بد.

[كان قضاء وقدرا رائعا
كتب علي...] (2).

هوامش الفصل الرابع

1) ـ [تعز أيها...] لونفلو/أخذتها من كتاب الغربال لميخائيل نعيمة. مقالة : الحباحب، ص : 37.

2) ـ [كان قضاء...] ريكور بارادولين، من قصيدته : الأبدية. أخذتها من كتاب : لمحات من الشعر السوفياتي الحديث، علي الحلي. الموسوعة الصغيرة، ص :64.

الفصل الخامس

هـــــديل القلــــــب

- 1 -

أوقفني في باب البحث عن السكن وقال لي :
- ما أصعب أن تجد لنفسك هنا مسكنا يأويك يانوري، خصوصا وأنت طالب علم، فمهما يبدو لك أن الآخرين يحترمونك ويقدرون أفكارك، ويتمنى بعضهم لو عاش حياتك بما فيها من متاعب، أو يتأوه أحد أمامك على أيامه الجميلة التي قضاها حين كان طالبا، فلا تصدق واحد منهم، إن مايقولونه مجرد كلام لايسمن ولايغني من جوع، إذ أن كل هؤلاء الذين صادفتهم وتحدثوا إليك بمثل هذه العبارات، لو طلبت من واحد منهم، ولو كان يملك عشرات الغرف الشاغرة، أن يسكنك في إحداها، لما سمح بذلك، ما السبب؟ لست أدري. قد يبدو للوهلة الأولى أنه يخشى أن لاتمده بالمبلغ المتوجب عليك دفعه كل شهر، وقد تذهب في تفكيرك بعيدا، فتقول إنه قد يخافك على شرفه سيما إذا كان يملك زوجة فاتنة وأصغر منه سنا، ولكن مع كل ذلك فالأساس هو أنه يعتقد جازما أنك مازلت، مهما كانت سنك، صغيرا على تحمل المسؤولية!

هذه المشاكل تصادفك فقط لأنك طالب علم، أما إذا أضفت إلى ذلك أنك أجنبي، فتلك الطامة التي لايمكن أن تمر عليك بسلام، إذ لابد أن تؤدي ضريبتها كاملة، فإما أن تتسكع على الأقل أسبوعا كاملا وأن تنام حيث تشاء لك الصدف، كي لاتسترعي أنظار الآخرين، أقصد أنظار رجال الأمن المبثوثة في كل مكان، فهم ما أن يشعروا بأنك لم تجد لك سكنا بعد، حتى يجدوا الفرصة مواتية لطردك من بلادهم، وإرجاعك من حيث أتيت، لايهمهم كم أنفقت من مال في سبيل المجيء إلى هنا، ولاما هي الصعوبات التي واجهتك في طريقك، ولاكيف استطعت رغم كل العراقيل التي اعترضت طريقك أن تسجل اسمك ضمن إحدى الجامعات. المهم أنك قد وقعت في أيديهم، وأنها فرصة لاتعوض لإظهار حسن استقبالهم لك ولأمثالك من الطلبة الطموحين!-

-2-

علي إذن أن أحل مشكلة السكن في أقرب وقت ممكن!
علي إذن أن أتصل بـ «كروس».

-3-

وقفت أمام مبنى «كروس». هذا المبنى الذي يقع في وسط المدينة تقريبا، إنه يحتل مكانا ذا أهمية واضحة حيث بثت الجامعات بالقرب منه، لايفصل بينه وبينها سوى الشارع الكبير الذي كان يجلب لي كثيرا من المسرات. ففيه، كنت على الأقل، أمتع ناظري برؤية أحسن ماخلق الله من صبايا، لم تكن الصبية منهن تتجاوز حدود التاسعة عشر، وكنت أحرص دائما على أن أتي في موعد دخولهن إلى الثانوية التي كانت هي الأخرى غير بعيدة من هنا، فقد كانت تقع في الجانب الآخر من الشارع، وقد وقعت لي لا أقل مغامرات معهن بقدر ما أفضل أن أسميها لقطات هي أقرب بكثير إلى بعض المشاهد الغرامية التي تقدمها بعض الأفلام السينمائية.

أما أول مايقابلك حين تكون عازما على دخول هذا المبنى الرائع، فهي كافيتريا "Galia" التابعة للمطعم الجامعي الحامل لنفس الإسم، وقد قضيت في هاته الكافيتريا كثيرا من الوقت سيما حين تشابكت حبالي بحبال "كرستين". هذه الإنسانة الرائعة التي أنستني كل شيء سبق لي معرفته، إنها غيّرت مجرى حياتي كله، فأصبحت مياهي بدل أن تصب في نهر "أم الربيع" تنجرف نحو نهر "الراين"، القابع في كل مكان هنا، ورغم أنني كنت في قرارة نفسي واثقا مما كنت أفعله أو أنوي تحقيقه، فإن الحياة تبقى أولا وأخيرا عبارة عن صدف، قد تواتي الإنسان فرصة ترفعه إلى أعلى دون أن يبذل مجهودا عظيما في الصعود، وقد تأتي أخرى فتهبط به إلى أسفل سافلين - مهما تشبث وتعلق بالمسار الصاعد إلى فوق، المهم

أن "كرستين" حاولت التحليق بي في سمائها إلا أني بقيت متشبثا بأرضي بالرغم من محاولاتي المتعددة لتكسير هذا التشبث أو حتى لإضعافه.

-4-

حين صعدت إلى الطابق الأعلى ولم يبق سوى مكتب واحد يفصلني عن ملاقاة المديرة، أو سيدة "كروس" كما كنا نطلق عليها نحن الطلبة شعرت برهبة قوية تسري في داخلي، وخلت أن جميع الحروف الفرنسية التي تعلمتها طيلة حياتي الدراسية، وقد فارقتني دون رجعة، فلم يعد في جعبتي سوى الآهات إلا أن حالتي هاته لم تدم طويلا فسرعان ماتدفقت الكلمات تباعا من فمي، وأنا أحاول أن أشرح للسكرتيرة غرضي من المجيء إلى هنا، فأمهلتني قليلا، ثم دعتني للدخول بعد أن أخذت لي إذنا من سيدتها.

-5-

كانت المديرة في حوالي الأربعين من عمرها، عليها آثار جمال لم يمح مع الأيام، طويلة بعض الشيء، تتخلل جسدها نحافة هي أقرب إلى الرشاقة، بادرتها بالسلام كي أذهب هيبتها التي حاولت أن تفرضها علي، وبعد ذلك بدأت في شرح مشكلتي، أخبرتها أنه قد مر علي أزيد من أسبوع وأنا أبحث عن سكن، وأني قد جبت جميع الأماكن التي توقعت أن أجد فيها محلا للسكنى أو التي دلني عليها بعض الأصدقاء ولكن دون جدوى، وقد تحاشيت أن أشير أو حتى ألمح في كلامي معها إلى مشكل العنصرية المطروح في هذه البلاد بحدة وأن لولاه لكنت الآن مرتاح البال في إحدى الغرف التي كانت معروضة للكراء، فقد سبق لي أن تلفنت لبعض الذين أعلنوا في الجرائد أن لديهم بيوتا شاغرة يرغبون في كرائها، ووافقوا على

إسكاني معهم ولكن ما أن يروا سحنتي ويعرفون من تقاسيمها أنني عربي حتى يبادروا إلى الاعتذار لي، تارة بأنهم قد عدلوا عن كراء الغرفة، وأخرى بحجة أن منحتي قليلة وضماناتي غير كافية.

- 6 -

لم أرد أن أردد مثل هذا الكلام على مسامع المديرة، فقد تكون هي الأخرى مساندة لأفكارهم، من يدري؟ فالعنصرية قد تفشت بدرجة تخال معها أن معظم الفرنسيين قد أصبحوا من أنصارها، ثم ماذا في استطاعة المديرة أن تفعل لي إن أخبرتها بذلك، فهي ستزم شفتيها ثم تنظر إلي طويلا، كما فعلت مع الذين سبقوني وحاولوا مناقشة هذا المشكل معها قصد استدرار عطفها ومساعدتها لهم، ثم تقول لي بكل هدوء وبكلمات واضحة : كان عليك قبل أن تأتي إلى فرنسا أن تعرف مايجرى فيها، ثم تضيف وكأنها تنفض عن نفسها أية مسؤولية في ذلك، بأنها قد أرسلت إليك وأنت قابع هناك في وطنك رسالة تخبرك فيها بأنه من الصعب أن تجد لك مأوى في فرنسا، وأن هذا الأمر لاتتعرض له وحدك لأنك أجنبي كما قد يتبادر إلى ذهنك، بل إنه مطروح حتى بالنسبة للطلبة الفرنسيين، وستوافقها على رأيها بعد أن تدلي لك بالطلبات المقدمة إليها من بعضهم، ثم إنك لابد أن تكون بالفعل قد صادفت أحدهم وهو يبحث مثلك عن مسكن يجمع فيه شتات شمله فلا يجد سوى الضباب بالرغم من كونه ابن البلد وأنه أحق بالسكن منك أنت، أيها الضيف الثقيل.

- 7 -

لم أحاول إذن حتى أن ألمح لهذا المشكل في كلامي معها، ولا أنكر أنها قد ارتاحت لكلامي، ووعدتني بأنها باذلة قصارى

جهدها لمسادعتي وحل أزمتي، ولم تنس أن تثني على مستواي الفكري ومدى وعيي بمجريات الأمور فطربت لذلك وحاولت أن أحافظ على نظرتها هاته لي، فلم ألح في الطلب وودعتها على أمل العودة إليها في الأسبوع المقبل، وما أن صفعني الهواء البارد حتى عدت إلى نفسي وشعرت بخيبتي وشدة ضآلتي.

ـ 8 ـ

ماذا قالت لك المديرة؟

قال كلماته الساخرة هاته ومد لي يده مصافحا.

فرفعت عيني الحزينتين إليه وابتسمت.

ـ لقد صرفتني، كما فعلت مع الآخرين، بكل ذوق وأدب.

ـ وماذا كنت تنتظر منها؟ لقد قلت لك ذلك من قبل.

ـ آه لقد حاولت أن أجرب حظي معها، ولكنه طلع نحسا كما ترى.

ـ لاتهتم يانوري كثيرا، واعتبر أن مسألة السكن قد حلت.

ـ ماذا تقول؟

ـ أجل اعتبرها كذلك، فقد وجدت لك مأوى في الشاطو!

ـ في الشاطو؟

ـ نعم في الطابق الأعلى منه.

ـ أشكرك، لا أدري لولاك ماذا كنت سأفعل.

ـ لاتقل هذا، نحن أصدقاء يا أخي، هيا بنا.

ـ إلى أين؟

ـ إلى إحدى مقاهي هذه المدينة

ـ إذن لنذهب إلى "إيروس" فإني مشتاق إلى بيرة أطفىء بها عطشي الشديد، أحس كأن جوفي ناشف لاريق فيه، ثم إني أريد أن أدوخ، أريد أن أسبح في عالم آخر، لقد أفهجت أخيرا،

فلنقم نحن إذن بالواجب كاملا، آه ياعبده إن بيرة واحدة لاتكفي، سأشرب بيرتين أوثلاثا.

- ولم لاتشرب سبعا.

- ليكن ذلك حتى نسبغ على جلستنا متعة سحرية فالعدد سبعة فيه نوع من السحر فالبحار سبعة والسماوات سبع...

- والأراضي سبع والأيام سبعة ورجال الله سبعة و...

- والفتيات الحسناوات سبع.

- آه هذه لا أعرفها، دائما أنت كعادتك، لايفوتك حديث دون أن تدخلهن فيه، كأن ليس في هذا العالم سواهن، ياأخي إن الحياة مليئة بأشياء أخرى أهم وأجدى.

- ماذا تقول؟ كأنك لم تقرأ قول جميل بن معمر ياهذا :

يقولون جاهد ياجميل بغزوةٍ * وأي جهاد غيرهن أريـــد

لكـل حديـث بينهـن بشاشـــة * وكل قتيل عندهن شهيـد (1)

- 9 -

وضحكنا معا وقصدنا المقهى القابعة في وسط المدينة، وأنا راض كل الرضى، إن الذي يرافقني الآن ويقتسم معي طريقي هو من أحب الناس إلي، فأنا لن أنسى مدى عمري أنه قد أنزلني منزلة الأخ وأنه قد فتح لي بيته في وقت تخلى فيه عني الآخرون، وقد قدم لي كل ما أحتاجه من مساعدات، وآخرها أنه قد وجد لي مأوى.

- 10 -

وصلنا إلى مقهى «إيروس»، هذه المقهى التي كانت تشتعل بالفتيات من كل الأجناس، ففيها وحدها من دون مقاهي "ستراسبورغ" تستطيع أن تغازل أي أنثى شئت، وأن تختم نهارك بالمبيت مع التي استقرت داخل القلب، قاضيا ماتبقى لك من وقت

في حجرها الذي بدا عليه التعب من كثرة ما استقبل من زائرين، وقد تأخذ جسدك الضعيف حمى، فترتعد فرائصك وتزوغ عيناك حين تصادف أنثى هي أقرب إلى فينوس، فترتمي تحت قدميها تقبلهما كأن فمك الناشف لم يذق الحلاوة من قبل، كأنك لم يسبق لك مطلقا أن فعلت ذلك مع أنثى سواها، وحين تلعب الخمر برأسك، وتشعر بأن رجليك قد زيدتا طولا وأن كتفيك قد اتسعا، تبدأ في شطحات صوفية قد تنسيك حالتك، وإذ تبلغ بك النشوة منتهاها قد تصفع أحدهم وحينذاك لاتدري كيف تنهال عليك اللكمات من كل حدب وصوب، ولاكيف رفعت ثم رميت خارجا، لاتدري إلا وقطرات المطر تملأ ثيابك فتنهض متثاقلا وتسأل عن الوقت، ثم تتجه إلى منزلك القابع في أدغال الغابة. وقد يختلف الأمر تماما حين تبعد عن معدتك العطشى رحيق العنب، وتكتفي بقهوة سوداء تشبه لياليك المتعاقبة، وقد تستنشق دخان سيجارتك التي استلفتها من صديقك، أو طلبتها من أحد الجالسين قربك فتزيد رؤيتك للأمور وعواقبها وضوحا، وربّما تأتيك اللذة من حيث لاتشعر إذ تجلس فتاة بجانبك، وقد تأخذ شربة من كأسك، ثم تهديك ابتسامة شكر فيتصفد جبينك عرقا وترتعد ركبتاك ويستقيم ثعبانك باحثا له عن مأوى، إلا أنّها تمضي مبتعدة عنك وقد تعود إليك وقد لاتعرف لها رجوعا، فإن عادت عشقتها فهي أهل لذلك. وقد تضطر إلى قتلها إن انبعث فيك عطيل فتغدو وحشا كاسرا، تعمي الغيرة عينيك فتغرس خنجرا أسود في صدرها فيفتح السجن بابه ويحتويك، تكتب الصحف عنك في أعمدتها الأولى أنك إنسان هجمي قادر من قبائل التتر، متوحش لاتعرف للحضارة معنى.

تلك هي بداية مقهى :إيروس" وتلك هي نهايته.

قال عبده للفتاة التي توسطتنا، وكنت على علاقة معها مسبقا :

ـ إذن أنت تعتقدين أنه لايوجد في بلادنا جامعات.
ـ ولم تأتون إلى هنا للدراسة إن كنتم تتوفرون عليها؟
فبادرت بقولي لها :
ـ لأمر بسيط ياصغيرة.
ـ ماهو ياترى؟
ـ لنداعب ....
فلم أشعر إلا ويدها قد أصبحت قريبة من وجهي، فقبضت عليها بقوة وحين التقت عيناها بعيني قلت لها بهدوء :
ـ الزمي حدود نفسك وإلا أدبتك.
ـ تريد أن تضربني أيها المتوحش.
ـ ولم لا أيتها الغزالة الرقيقة؟
ـ أف منكم، لقد ملأتم علينا الدنيا، سنترك لكم هذه الأرض، خذوها واندفعت خارج المقهى، ولم يمر إلا وقت قصير حتى عادت ومعها بعض أبطالها الذين تحتفظ بهم لمثل هذه الساعات الحرجة...

ـ 12 ـ

لقد غابت الشمس، ومات القمر، وتوقفت الأرض عن الدوران، سبحت أنا وصديقي عبده في عالم آخر، نضجت جلودنا قبل نضج التين والعنب، وغاب المعتصم عنا، ترك الفتاة العربية المغروسة في قلوبنا تموت كمدا وحزنا، وانتزعت عمورية منا وذهبت بعيدا، حلقت في الأعالي كالطيور الجارحة وظلت صامتة تتفرج على مأساتنا، لم نعد نرى النور الساطع ولا نسمع هتافات التشجيع، فقد سقطت أضلعنا من كثرة ماتحملت من ضرب العصي، وامتلأت ثيابنا عرقا وتمزيقا، وغاب الوعي عنا، ولما فتحنا عيوننا تبسمنا معا، كان هو يرقد على سرير أبيض، وكنت بالقرب منه ممددا على آخر،

حاولنا أن نفتح أفواهنا دون جدوى فقد صعد الألم إلى ذواتنا ومنعنا من الكلام،

- 13 -

آه منك أيتها العاهرة، لو ألتقي بك وحدك لهشمت رأسك الطافح غرورا، ولأعدتك إلى نفسك الهاربة منك، ألم تقبليني مرارا، ألم تضميني إليك بعنف ورغبة لأمنحك الحياة؟ ألم تجر ورائي ليلا ونهارا لأمكث بالقرب منك؟

آه لو أصادفك في طريقي مرة أخرى لأذقتك شر العذاب فأنت تعرفينني جيدا!

- ماذا أعرف فيك أيها القذر؟ إنك لاتساوي حتى ثمن عطري
- سنرى كم أساوي حين نلتقي وجها لوجه!
- ماذا في مقدورك أن تفعل؟ أم أنك تريد تأديبا آخر.
- سأصفعك!
- سأدمرك قبل أن تفعل ذلك.

- 14 -

وتغيب صورتها عن ناظري ويأخذني نعاس ثقيل، ولا أشعر بنفسي إلا وأنا طائر في سمائه الرحبة دون أن أعي أن صديقي عبده قد سبقي إلى ذلك.

- 15 -

وارحمتا للغريب في البلد النازح * ماذا بنفسه صنعا
فارق أوطانه فما انتفعت * ببعده عنها ولا انتفعا (2)

هوامش الفصل الخامس

1) ـ شرح ديوان جميل بثينة : المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت ـ لبنان ص 33.

2) ـ البيتان مأخوذان من سيرة (حمزة البلهوان). المجلد الرابع، ص : 279.

الفصل السادس

تـــــــرويض الأفعـــــــى

- 1 -

كانت كافتريا "Esplanade"غاصة بالطلبة، كعادتها دائما، لاسيما في مثل هذا الوقت، فكثير منهم يحلو له أن يأخذ قهوة سوداء أوبيرة، ثم ينعزل في إحدى الزوايا مع زملائه إن كان يتوفر عليهم، ويبدأ في الحديث عن فلسفته تجاه هذا الكون وعن موقفه من قضايا المجتمع العالمي، وعن مدى مساندته لهذه القضية أو تلك، أما الذين فاتتهم فرصة أكل الغذاء في موعده المحدد، فلهم الآن فرصة أخرى لتدارك ذلك بأن يأخذوا مثلا "Un repas froid" يسدون بها رمق الجوع الساري في أجسادهم، أما أنا فلم يكن شيء في هذه الكافتريا يثيرني أو يهز وجداني قدر لعبة "الفليبير". فهذا الصندوق الجهنمي الذي يبلع النقود بشراهة بالغة، يبعث فيّ حماسا لاعهد لي بمثله، إنه يجعلني أصارع نفسي وأعصابي معا، وأحاول أن أثبت للذين كانوا يتجمعون حولي للفرجة أنني أجيد فن اللعبة أكثر منهم، وأني أستطيع أن أجعل هذا الصندوق الحديدي بجميع تقنياته تحت رحمتي دون أن أدفع مقابل ذلك سوى قطعة نقود واحدة، وهذا لايتم بسهولة، إنك تستطيع أن تصارع ثلاثة رجال أقوياء، وقد يسعفك الحظ، إن كنت قويا فتنتصر عليهم، ولكن مع ذلك فإنك لاشك منهزم في اللعبة إن كنت لاتملك أصابع خفيفة، سريعة التحرك وإرادة قوية لكي تحافظ على برودة أعصابك وتركز في الكرة الصغيرة الظاهرة أمامك دون أن تدعها تنفلت من براثنك وتعود إلى مكانها الأصلي، عليك أن تصعد بها من أسفل لأعلى، ثم إن هي حاولت النزول، فيجب أن تقف لها بالمرصاد، وهذا ليس بالعمل السهل مهما بدا لك ساذجا، ثم إن فيه لذة فهو يمنحك فرصة لتفجير كل غضبك فيه، حيث أنه ما أن تنتهي حتى تشعر أن هما ثقيلا قد انزاح عن كاهلك، كما أن الموسيقى المنبعثة من الصندوق الهادئة حينا والصاخبة أحيانا تجعل من نفسك أختا لها، فتجاريها في هدوئها وفي صخبها.

كانت عيناي تتابع الكرة الصغيرة وهي تتراقص داخل صندوق "الفليبير" فقد أمسكت بمحركي هذا الجهاز يدا فنان ماهر، بدأتا تحركاه كما تشاءا، ولقد أعجبت بهذا الفنان العبقري، أيما إعجاب لقد ظننته في أول الأمر، مغربي الأصل، إذن أن لون بشرته يميل إلى السمرة، مثلي تماما، ثم إن في عينيه الجميلتين شيئا من مفاتن بني ملال، لم أستطيع تحديده، وكم كان الأمر مضحكا حين أثنيت عليه باللغة العربية فحملق في غير فاهم ماقلته له، وسرعان ما علت الضحكات من حولي، وبالغ بعضهم فيها حتى أن وجه الشاب قد كسته حمرة الخجل، وظن أنني سخرت منه بلغة لايعرفها، ولما رأيت أن الشرر قد بدأ يصعد إلى ملامحه وشعرت أن الأمر قد يتحول إلى ما لاتحمد عقباه، تقدمت منه وشرحت له الأمر باللغة الفرنسية، ولما أكد له بعض الحاضرين ذلك ابتسم لي واعتذر عن سوء ظنه في ماقلته له سابقا، ثم تابع اللعب...

ـ 3 ـ

ولما بدا لي أنه لم يعد يفصلني عن دوري سوى شخصين فقط، بدأت أبحث عمن أستبدل عنده نقود الورق المتوفرة لدي بأخرى من نحاس، إذ لم يكن عندي منها شيء، وحين استدرت أبحث عن الشخص المنشود، رأيت إحدى الفتيات تنظر إلي، وكأنها قد أدركت مرادي، ولما رأيتها قد ظلت صامتة، تجاهلتها وقصدت أحد الطلبة، وبعد أن اعتذرت عما قد سببت له من إزعاج إذ كان منهمكا في قراءة إحدى الروايات، طلبت منه أن يصرف لي ورقة من فئة عشرين فرنكا، فعلت وجهه ابتسامة اجتمعت فيها كآبة الدنيا بأكملها ثم قال لي :

ـ لست أملك حتى ثمن العشاء!

أواه! إذن هناك من هم أتعس مني حالا في هذه الدنيا، ومع ذلك

يدرسون، ولكني أخفيت أسفي في أعماق دواخلي وقلت له متسائلا؟

- هل تقول هذا جادا؟

- أجابني بنفس الصوت الكئيب :

- نعم وما الداعي إلى الكذب؟

صمت قليلا ثم قلت له بهدوء حاولت أن يبدو طبيعيا.

- إذن، فأنا أدعوك للعشاء معي.

قال وقد تغير لون وجهه إلى أحمر قاني.

- وأنا موافق.

- موعدنا على الساعة السابعة والنصف.

قلت كلامي الأخير هذا وذهبت مودعا.

- 4 -

ما أن تركت هذا الشاب العربي الضائع بين الواقع والحلم، حتى بدأت البحث من جديد عمن يغير نقودي الورقية بأخرى من نحاس. ورغم أن الفتاة مازالت تنظر إلي، وقد علت وجهها ابتسامة مشرقة، فقد حاولت أن لا أذهب إليها، خصوصا وأنها لم تكن وحيدة. فقد كانت بجانبها فتاة فرنسية فيها كل آيات الجمال، أما هي فلم أدر إلى أي بلد تنتمي، لم أستطيع أن أخمن جنسيتها الأصلية وإن بدا لي أن ملامح العرب غالبة على تقاسيم وجهها الخمري، ولما لم أجد بدا من الذهاب إليها، إذ أن كل الذين ظننت أنني واجد لديهم ما أطلبه خيبوا ظني، رسمت على وجهي معالم الرزانة وتقدمت نحوها، وبعد تبادل التحية سألتها بلطف :

- هل معك بعض النقود النحاسية؟

- نعم معي، كم تريد منها؟

- عشرين فرنكا.

- طيب، خذ، واحد... اثنان... ثلاثة... أربعة.

لقد ناولتني أربع قطع نقدية، كل قطعة تساوي خمس فرنكات، ولما ناولتها ورقة نقدية تعادل قطعها الأربع، شكرتها كثيرا وحين رأيت فمها الجميل يفتر عن ابتسامة مرحة تشجعت وقلت لها

- عربية الأصل على ما أعتقد.
- نعم، بكل تأكيد.
- ومن أي البلدان العربية؟
- من مصر، من أرض الكنانة العتيدة.

قالت كلماتها الأخيرة باعتزاز، ثم تابعت قولها : إلا أني للأسف الشديد، لم أزرها مطلقا، فأنا مولودة في هذا البلد.

- لاداعي للأسف، فما زال أمامك متسع من الوقت لفعل ذلك، المهم الآن أن تكوني سعيدة هنا، ولك صديقات يحببنك!
- يا لك من شيطان! أكنت تواسيني أم كان كلامك هذا تمهيدا لمغازلة صديقي؟

ثم استدركت قائلة دون أن تنتظر جوابا على سؤالها اللعين :

- لقد نسيت أقدمها لك، إنها تدرس في كلية الآداب، سنة أولى، ثم وهذا هو المهم، أن اسمها كرستين!
- اسم جميل حقا،

ثم وجهت بقية كلامي إلى كرستين قائلا :

- لعلي قد حظيت بشرف رؤيتك في مقهى الكلية؟
- أظن ذلك، فوجهك ليس غريبا عني، ثم إني أكون هناك باستمرار. وكأني خشيت أن تغضب الفتاة العربية مني، وأنا قد أحتاج إليها مستقبلا، فسارعت إلى إشراكها معنا في الحديث :
- وأنت أيتها الغزالة البرية، لم تعر فيني بعد على اسمك !
- جميلة، اسمي جميلة.

- على ذكر الجمال، هل تسمحان لي بدعوتكما للغذاء معي يوم السبت القادم.
- ونحن موافقتان! قالتاها في لحظة واحدة وكأنهما كانتا تنتظران الدعوة مني على أحر من الجمر.

- 5 -

بعد أن حددنا مكان اللقاء وزمانه، ودعتهما وأنا جد فخور بنفسي وكأنني قد فتحت قلعة مستعصية وسمحت لجنودي بالمرور منها، ولكن آه منكن أيتها الفتيات، إنكن لطيفات جدا، رقيقات، إلا أنه ما أن يقع الواحدة منا، نحن الرجال، في حب إحداكن حتى تذقه شر العذاب ورغم أن هذا لم يقع لي لحد الآن، فإني كنت أخشى حتى التفكير فيه...

- 6 -

عدت إلى الصندوق الجهنمي، وأنا على أتم الاستعداد لمواجهته، وبعد أن أديت له ثمن استضافتي قطعا نقدية نحاسية، رحب بي وفتح لي ذات قلبه، وسرعان ما استغرقني اللعب بكرته اللعينة، وقد كنت أشعر بلذة كبرى حين كانت تتصاعد كلمات الاستحقاق من حولي وشعرت بغرور لايقاوم، غرور لذيذ دغدغ عواطفي وجعلني أكبر في عيني مثنى وثلاث ورباع، ولحظتها علمت أن الإنسان ضعيف أكثر مما يعتقد. فكلمة واحدة تجعله سعيدا طيلة يومه، وكلمة يتيمة قد تمنعه النوم ليال متتابعة، إن الإنسان الذي يصمد أمام الثناء، لم يوجد بعد، والذي لايعير لكلمات القدح الموجهة إليه أدنى اهتمام كائن خرافي ينتمي إلى عالم لانعرفه.

وفجأة شعرت بأصابعي تخونني في اللعب فهتفت بلا وعي مني :

- لقد خدعتني اللعينة وتسللت إلى غرفة نومها!
- ولكنك كنت ساهما في اللحظات الأخيرة، فيم كنت تفكر؟
- آه في الدنيا، في ضعف الإنسان وقوته!
- وتركت الكرة الصغيرة تضيع منك.
- لاتخف، سأنتقم منها في المرة القادمة.
- إنك تخاطبها وكأنها أثنى خلقت من لحم ودم.
- ولم لا؟ إنها تشبه حبيبتي التي لم توجد بعد.

-7-

نعم ولم لا؟ إن هذه الكرة الصغيرة وهي مسجونة في هذا الصندوق الجهني، تحيرني في أمرها ففي المرات التي أحاول أن أشفق عليها وأرحم ضعفها، وأتركها تعود إلى بيتها في هدوء وسلام تأبى ذلك، وتفضل أن تبقى معي، تاركة جسدها البض معرضا لضرباتي القوية، بل إنها في كثير من الأحيان تشجعني على ضربها إذ أنها تتعمد أن تمر بأماكن جد راقية، أماكن مملوءة بأضواء من مختلف الألوان، ثم لاتكتفي بذلك بل إنها تأتي إلي متبرجة ورائحة العطر الشهواني تنبعث من كل أطرافها، فماذا أفعل معها والكل يشهد بفحولتي؟ ماعلي إذن إلا أن أنهال عليها تقبيلا وعضا، وهذا سيجلب لي نقطا عالية، سترغم الصندوق الحديدي الأصم على أن يمنحني دورا آخر مجانا، وعلى أن يسمعني ألحانا شجية، قد تكون دليلا على مايعانيه من حزن وألم، بسبب ما قد منحني من فرص للعب، فهو معروف ببخله وقلما استضاف أحد دون مقابل إلا مرغما، أما حين أريد أنا استبقاءها، فهي ترفض ذلك بشدة، بل وتعتبره إهانة لها، وهذا ليس شأنها معي أنا فحسب وإنما مع كل الذين قد عايشوها وأحبوها، مما دفع

الكثيرين منهم إلى نصحي بتركها والابتعاد عنها، فهي وبال على من يرافقها، وصحبتها لاتجلب إلا الهلاك إذ أنها متلفة للنقود، مضيعة الوقت، موترة للأعصاب، ثم إنها في صندوقها هذا شبيهة بأفاعي الصحراء السوداء وقد التجأت إلى غيرانها بعد أن لسعت أحد الأشقياء لسعة الموت الرهيب.

-8-

إن أصدقائي المساكين هؤلاء، لم يروا في الأفعى سوى الخطر الذي تمثله، والسم الذي تنفثه في أجساد ضحاياها، وفاتهم جمالها الفتان، وانسبابها الوثني المقدس سواء في رمال الصحراء أو قرب الوادي، آه ما أجمل معانقة الأفعى والنوم معها في فراش واحد. إن كليوباترة لم تسترجع جلالها المفقود في مزابل السهرات الحمراء إلا بعد أن توجت الأفعى رأسها وطبعت قبلة الموت على جبينها المتلألئ.

-9-

بعد جهد نفساني عميق، استرجعت نفسي الغارقة في أوهامها، فالوقت قد مر بسرعة والشاب الذي كنت قد دعوته للعشاء معي مازال ينتظر هناك في أقصى الركن، بل لعله قد ظن أني ندمت على الدعوة التي وجهتها له، وإني أسعى للانفلات منه. إهدأيا هذا، ما أنا ممن يفعلون ذلك، ستتعشى معي اليوم ولك الله غداً، فقد تجد عملا يقيك مذلة السؤال ويحفظ لك كرامتك، وقد تعيش ماشاء الله لك ذلك عالة على الأصدقاء وذوي النفوس الكبيرة، لو كنت مثلا في "بوردو" أو في "نيس" أو في أية مدينة أخرى ما عدا هذه التي احتوت فوق ترابها (قصر أوربا) لتغير الأمر ولعشت مطمئن البال، فالعمل هناك جد متواجد على ماقد حكي لي.

- 10 -

انتهى العشاء، وجلسنا ندردش بعض الوقت، حتى قال لي :

- أتصدق أن أشد ما أخشاه هو أن أنتهي يوما ماقاتلا أو مقتولا.

- دع عنك اليأس وحاول أن تبتعد عن مثل هذه الأفكار السوداء!

- ومن أين لي ذلك، إن نفسي قد أمست ضعيفة، وإن أية ريح قد تأتي من أية جهة كانت إلا وستقتلع جذوري!

- على كل لاتستسلم يا أحمد، وكان هذا هو اسمه، وقاوم.

وتذكرت في هذه اللحظة آلاف الضحايا المهاجرين، تذكرت مصطفى سعيد وتذكرت محسن، وسرعان ما انسابت صرخة محمود درويش من أعماقي معلنة عن وجودها المأساوي :

أنا أحمد العربي - فليأت الحصار
جسدي هو الأسوار - فليأت الحصار
وأنا حدود النار - فليأت الحصار
وأنا أحاصركم
أحاصركم
وصدري باب كل الناس - فليأت الحصار(1).

هوامش الفصل السادس

1) ـ محمود درويش : قصيدة أحمد الزعتر
ديوان محمود درويش ـ المجلد الثاني، دار العودة ـ بيروت، ص :474.

2) ـ فضل الكاتب الضمني أن يختم هذا الفصل، بمقطع شعري فاتن لمحمود درويش حتى يكون التأثير قويا في نفسية القارئ المفترض، لذا وجب التنويه.

الفصل السابع

تفاحة العشق

-1-

كان علي في هذا اليوم بالذات استلام بطاقة المكوث في هذه البلاد، إذ أن المعنيين بالأمر بعد أن تأكدوا من أن جميع أوراقي سليمة وأني متوفر على منحة دراسة لابأس بها تسامحوا معي - على حد تعبيرهم - وأثبتوا اسمي في دفاترهم، وأعطوني مواعدا لمنحي إياها. وهاهو الموعد قد حل وها أنا على أتم الاستعداد للذهاب إليهم لأخذها إذ أنها تمثل بالنسبة لي أولى خطوات الاندماج في هذه الحضارة.

-2-

دلفت إلى العمالة الكبيرة دون أن أسأل عن موقعها، فقد كنت أعلم أنها تقع بالقرب من المكتبة العمومية التي كثيرا ما كنت أزورها، ولم أنتظر طويلا حتى عدت بما جئت من أجله، لازحام، لاتلاعب، الكل يعمل وبصمت، لاتكاد تسمع إلا دقات أنفاسك، ولم أكد أعبر الشارع الكبير حتى جذبتني المكتبة إليها، ربما أن منظرها الرائع هو الذي منع خطاي من الابتعاد عنها أو ربما خلت أن تماثيل رؤوس المفكرين والأدباء التي كانت تنظر إلي من أعلاها جعلتني أقف احتراما وإجلالا ليد الفنان الذي أبدعها بالرغم من تعودي على رؤيتها، وتخيلت أنني حين أحصل على الجنسية الفرنسية وأغدو كاتبا شهيرا، أنني سأصعد لأجلس معهم. وتمثل لي تمثال رأسي يقف بجانب كل من تماثيل هيجو وروسو وفولتير فابتسمت.

-3-

حين بدأت أصعد درجات المكتبة لألتحق بقاعة المطالعة انفجر وجهي دهشة لما رأيتها، هادئة كالبحر وقت الغروب، ترسل دخان سيجارتها بشفتيها الرقيقتين وتتملى برؤية دواخل نفسها، لقد

كانت عيناها الزرقاوان في اتجاهي تماما، ولكنها لم تكن ترى بهما في هذه اللحظة، لقد كانتا مركزتين على أفكارها، كانت تنظران إلى الداخل على غير عادتهما، وبمرونة النمر النشط غيرت اتجاهي لأعود من الجانب الآخر وأجعل يدي فوق عينيها وأسألها كعادة الصبيان حين يلعبون لعبة "سد العينين" :

- من أنا؟

وتلمست بيديها الحلوتين يدي لعلها تعرف من خلال هذا التلمس من أكون ومن أي طينة خلقت، وطالت عملية اللمس هاته فشعرت بنشوة روحية تحتويني، وبثعباني الخبيث ينهض من نومه كمن أصابته حمى وقت الظهيرة ويبدأ في شق طريقه نحو مكمن يلقي فيه سمه، وأعجبني ذلك فلم أرفع يدي عن وجهها الرطب.

- 4 -

قالت بعد أن أعياها التخمين في معرفة هويتي :

- المهم أنك رجل، فيداك خشنتان!

آه منك أيتها الجنية، إنك قد أصبت الهدف، ولكنه تحصيل حاصل، إنني كنت أتلهف لسماعك تهتفين من أعماق نفسك باسمي، فتتبدل رنات حروفه بفعل السحر المنبعث من نطقك لها إلى كائنات تمشي على أرض الواقع.

- بالله عليك قل لي من تكون؟

ومن أكون ياصغيرتي غير عاشق ولهان، أتعبته عيناك الجميلتان، وبعث فيه مرأى نهديك شبابه الضائع بين مشاكل الدنيا، سوف لن أطيل عليك الانتظار، فقد يفنيك التفكير، فأنت رطبة كحلوى ليلة رأس السنة، وهي تذوب بين شفتي طفل شقي،

- آه لقد عرفتك، أنت...

وبدون وعي مني، وقعت في الفخ المنصوب لي بدقة إذ هتفت وكلي شوق وفرح :

- نوري.
- نوري! يالك من مخلف للوعود!
رفعت يدي عن عينيها وقلت باستغراب مصطنع :
- مخلف للوعود!!
- نعم لأنك لم تأت للموعد الذي حددناه معا لمشاهدة فيلم «غاندي»
- آه يعلم الله أن ذلك قد حصل رغما عني، ألم تلاحظي بعد آثار جروح على وجهي؟
وحدقت في وجهي جيدا، ثم قالت مستغربة :
- ماذا وقع لك؟ هل دخلت في صراع مع أحد الأشقياء؟ لم أكن أعلم أنك إنسان مشاغب.
- رويدك، سأحكي لك واقعتي ونحن في الطريق.
- هل أفهم من هذا أنك تدعوني للذهاب معك؟
- بالطبع فهذه فرصة لاتعوض. هيابنا.
- حاضر ياسيدي، على رأسي وعيني!

- 5 -

في الطريق حدثتها عن نفسي كثيرا، أخبرتها بأني قد مارست فن التشخيص منذ نعومة أظافري، حتى أصبحت أعيش حياتي وكأني أشخصها فقط على خشبة مسرح، وكم كانت سعيدة وهي تسمعني، كانت شفتي من حين لحين تهمس لها بالكلمات التي تدخل قلبها دون إذن، وكان وجهها مرآة صافية أرى فيها مدى سيطرتي على عواطفها، لقد جعلتها خاتما في اصبعي، أحركه كيف أشاء، سيما بعد أن بحت لها بمكنون صدري اتجاهها، وأخبرتها بأنها قد احتلت مكان الصدارة منه، وأنني بقيت منذ لحظة تعرفي عليها أسير هواها، ولولا وجود جميلة، في تلك اللحظة السابقة

معنا واحترامي لشعورها لأعلمتها بأمري في ذلك الوقت، وحدثتني هي الأخرى عن نفسها، حدثتني عن سيطرة الموسيقى على وجدانها، وعن أصابعها اللطيفة وهي تنساب فوق ملامس بيانوها الحبيب، بكل رقة، فتخرج أصداح الطيور وزقزقاتها من بين طياته، وينبعث هدير الموج وسكونه من أعماقه، وتأتي الرياح عاصفة تارة وهادئة أخرى. آه كم تعجبها نفسها ويرتاح قلبها وهي تعانق موزار في سمفونياته، وتغازل بتهوفن في روائعه، وأعلمتني أنها شعرت بحبي لها منذ النظرة الأولى وأنها انجذبت نحوي بلاوعي منها، لقد سحرتها شخصيتي وأسرتها ضحكاتي، وملك خيالها طيفي، وكم ظلت حائرة في انتظار سماع اعترافي لها بحبي، وكم خشيت من جميلة أن تستحوذ علي، وصدقتها، حقيقة لم أكن في منتهى الجمال ولكن كم أسقط البريق المنبعث من عيني من فتاة! آه يالي من مغرور!.

- 6 -

دخلنا قلب المدينة، هذا القلب المفتوح لكل الناس، أناس قد تحبهم دون شعور منك أو منهم، أناس من كل الأجناس تأتي إلى هذا المكان، ولايكاد يخلو منهم، فكأنّ اللعبة أعجبتهم، فمنهم الذاهبون ومنهم الآتون، والعدد هو العدد، لايزيد إلا قليلا ولاينقص إلا قليلا كأن الناس هم نفس الناس كأن كل واحد منهم قد تكلف بمهمة لاتتعدى الذهاب والاياب دون عمل، ولو لم تكن تحضرك قولة اليوناني الشهير : إنك لاتسبح في النهر مرتين لأن مياها أخرى ستجري فيه، لاعتقدت بأنك قد تشاهد مايجرى الآن أمام عينيك مئات المرات، أجل إن الناس قد يتغيرون كمياه النهر وأن الذين يمرون الآن أمامك ليسواهم بالتأكيد الذين قد مروا من قبل، ولكن كما يبقى النهر هو النهر رغم تغير المياه فسيظل قلب

المدينة هو قلبها وإن تغير المارون، فها هي الكاتدرائية الكبيرة التي سبق لي أن زرتها مرارا، إنها آية في الجمال والروعة إنك حين تلجها يسحرك الفن المبثوت فيها من كل الجوانب، حتى تمثال عيسى، المحتل صدارة اتساعها يدخل في روعك أن صاحبه واقف أمامك حي يرزق فالدم المترقرق على الصدر وفي وسط اليدين الممدودتين في اتجاه اللامنتهي، ورهبة الخنجر المشع الذي يخترق كفيهما معا، يجعلك تخشع في ذهول غريب وتقول في سرك : إن من الفن لسحرا.

ثم هاهي نافورة الماء الخلابة تترقرق مياهها أمامك، فتستغل ذلك وتهتف بمرح لصديقتك التي ضايقها صمتك وانشغالك عنها بأفكارك :

- لنسبح معا، ياكرستين، فلذة الماء لاتساويها لذة!

فتجيبك وهي منشرحة الصدر إذ سرعان ماتلاشى القلق الذي حوم فوق جبينها :

- ولم لا! هيا إلى الماء!

ثم تضحكان معا، وتتعانقا، بل إنك لتوشك أن تقبلها أمام المارة كعادتك دائما مع الفتيات اللواتي يعجبنك، ولكنك هذه المرة تكبت رغبتك وتحول مجرى الحديث.

- آه، لقد نسيت، هناك فيلم رائع يجب أن نشاهداه

- لا ليس هذا يوم السينما يانوري! إنك ستذهب معي لنشتري بعض الكاسيطات، فأنا منذ مدة لم أسمع شيئا جديداً.

- ولكن...

- دعك من (ولكن...) واتبعني.

- إلى أين ؟

- إلى هناك!

وأشارت بيدها اليمنى إلى عمارة شاهقة، كان اللون الأخضر هو المسيطر على الألوان المصبوغة بها، بينما ظلت اليد اليسرى تداعب عنقي. تبعتها لما سارت أمامي، مانحة لشعرها البنفسجي حرية التعبير عن ذاته، إذ أنه كان يجاري الهواء البارد المتسلل إلى أعماقنا ذات اليمين وذات الشمال تبعتها وكيف لا أتبعها وهي تحمل في كفيها قلبي! وحين وطأت أقدامنا باب العمارة، رفعت رأسي إلى أعلى، فقرأت : «هنا الربيع، أهلا وسهلا بكم»، ثم ما أدري إلا وفتاتي تقبض على يدي وتجرني إلى الداخل.

ـ 7 ـ

ـ أتعرف الطابق المخصص للموسيقى؟

ـ إنه الطابق الخامس!

ـ ولم لايكون الرابع، ياصديقي العزيز!

ـ إني جد متأكد!

ـ لنتراهن إذن!ـ سأكسب الرهان أيتها...

ـ أحقا؟

وجلجلت ضحكاتها في المكان!!!

ـ 8 ـ

كنت متيقنا أنني سأربح الرهان، شيء مافي داخلي يجعلني أعتقد ذلك، إذ أنني كلما دخلت في رهان مع أحد، وكان هذا الرهان يتوقف على اختيار رقم معين، كان الرقم خمسة ينبعث من أعماق نفسي ويطفو على السطح وكنت كلما لبيت الرغبة الجامحة التي كانت تسيطر علي في هذه المواقف الحرجة وجعلت هذا الرقم هو ورقتي المرفوعة في وجه الآخرين، كان التوفيق يحالفني وصورة أبي ـ رحمه الله ـ تتراءى لي لدى عودته من المسجد بعد أدائه لصلاة الجمعة، ومقابلتي له عند مفترق الطريق وهتافه بي :

- ألم يهدك الله بعد يابني، فأراك مصليا!
- سأصلي يا أبتي، كن مطمئنا
- صلوات خمس كل يوم.
- زيادة على الشفع والوتر!

وبعد أن أطبع قبلة عى خده، أفسح له الطريق، وقد يسمع أحد من المارة مادار بيننا من حديث، فتخرج من بين شفتيه هذه الجملة أو ما يشبهها :

- "هؤلاء هم أبناء الرضى".

-9-

لقد كان والدي مولعا بأداء الصلاة سيما حين تعدى سنه الأربعين. كان يحثنا على أداء الصلاة ويبين لنا فوائدها في الدنيا والآخرة، وكانت كلماته وهو يخاطبنا تأخذ طابعا خطابيا مؤثرا، لم يكن يأمرنا يفعل شيء معين، ولكنه كان إذا رغب في ذلك لمح لنا به تلميحا لطيفا فنفعله عن طيب خاطر، لهذا لم يمر وقت طويل حتى أصبحت والدتي تؤدي الصلاة رغبة فيها وإرضاء له، ثم بدأ العدد يتكاثر حتى لم يعد هناك أحد لايصلي سواي، الأمر الذي استغرب له الجميع ماعداه هو، فقد كان يحبني كثيرا، وكان يعلم أنني قد أصلي ذات يوم ولكن حين أريد أنا لاحين يريد الأخرون مني فعل ذلك، حتى ولو كانوا من أعز الناس لدي. آه كم كان أبي رائعا، ولم أدر إلا وأنا أحاول أن أمنع دمعتين من السقوط على خدي خفية أن تحس كرستين بما أعاني ولكنها قد لاحظت ذلك فقالت :

- مالك يانوري، لقد كنت سعيدا منذ لحظة فقط!
- تذكرت أهلي فجأة، ترى كيف يعيشون هناك!
- بخير! كما تعيش أنت هنا!
- أتمنى ذلك.

قلت كلماتي الأخيرة من أعماق قلبي وصليت لله في سري مثنى وثلاث ورباع وخماس.

- 10 -

تركنا المصعد عند الطابق الرابع، فتشناه بقعة بقعة ولما لم نجد أثرا لنسمات الموسيقى فيه أخذت كرستين من ذراعها وقلت لها:

- اسمعي ياهاته، أنا متأكد من أن أدوات الموسيقى في...
- الطابق الخامس!
- نعم.
- وماذا تريد الآن؟
- أن نصعد إليه مباشرة دون تضييع للوقت!
- وإذا وجدناه فارغا منها.
- نكون إذن قد خسرنا الرهان معا!
- حسنا، هيا بنا.

- 11 -

كان الذي توقعته حقا، فبدأت أفكر فيما أطلبه من هذه الحورية الواقفة أمامي، شوكولاطا، عصير برتقال، قميص من أخر طراز، لا،لا، لن أطلب منها شيئا من هذا القبيل.

- آه أيها اللعين، لماذا صمت؟ لعلك تفكر في الشيء الذي ستطلبه مني!
- بالضبط هذا ما أفكر فيه.
- أطلب ما شئت، أنا مستعدة لتلبية طلبك!
- أريد أن تنامي معي!
- لقد كنت أنتظر ذلك منك منذ أن أعلنت الرهان!
- آه يالي من مغفل!

ـ 12 ـ

ونامت حقا بين يدي في تلك الليلة.

ـ 13 ـ

الشرق شرق والغرب غرب
وإن ناما معا فوق سرير واحد!

ـ 14 ـ

[ضاعت لفظتي وامرأتي ضاعت...
سيأتي... سوف يأتي عاشقان
يأخذان الزنبق الهارب من أيامنا
ويقولان أمام النهر :
كم كان قصيرا زمن الرمل
ولايفترقان
البدايات أنا
والنهايات] (1).

ـ 15 ـ

....
....
(2) ....

هوامش الفصل السابع

1) ـ محمود درويش : قصيدة الرمل، ص : 501-502.
ديوان محمود درويش، المجلد الثاني، دار العودة، بيروت.

2) ـ نور الدين محقق : قصيدة «تفاحة أفروديت» مجلة «مواقف»، العدد المزودج 73-74، خريف 1993 ـ شتاء 1994.

الفصل الثامن

رقصة الأشواق

- 1 -

قررت أن أذهب إلى الحفلة، لم لا؟ وهي حفلة راقصة جميلة، مثلها في ذلك مثل كثير من الحفلات الراقصة التي حضرتها هناك في أرض المغرب، بلدي الحبيب الغالي، الذي أشعر الآن نحوه باشتياق عظيم، فحب الأوطان من الإيمان. حقيقة أنها حفلة راقصة هذه المرة بكل معاني الكلمات، فتيات من كل الأجناس البشرية ستكون حاضرة فيها. كؤوس الشامبانيا وزجاجات البيرة بشتى أنواعها ستوزع حسب الطلب والرغبة والمال المدفوع. موسيقى صاخبة حينا، هادئة حينا، ثائرة في معظم الأحيان، ستملأ أرحبة المكان. جو مشحون بالعواطف المتدفقة دون اتجاه ونحو أي كان. ولكنها أي هذه الحفلة، ستبقى على الأقل في نظري الحالي، مجرد حفلة، لايمكن أن تخرج عن إطار الحفلات الراقصة في العالم أجمع. لهذا لم أرسببا في أن أحرم نفسي من الذهاب إليها، خصوصا وأن كثيرا من أصدقائي الطلبة، وصديقاتي الطالبات سيكونون ضمن المدعوين إليها أو المشاركين في عملية تهييئ أجوائها. ارتديت، تبعا لكل هذه العوامل، أحسن مالديّ من ثياب، بعد أن حلقت شعر وجهي طبعا ونظفت جيدا أسناني، التي كثيرا ما مدحتها رفيقتي الشابة «كرستين» ونعتتها بكل الصفات الإيجابية، من بياض وتناسق ولمعان، لاسيما وأنني معروف لدى نفسي قبل أن أعرف لدى الآخرين، بكثرة ابتساماتي التي أوزعها ذات اليمين تارة وذات اليسار تارة أخرى، نحو الرجال قليلا وصوب النساء في غالبية الأحيان.

- 2 -

أخذت الحافلة رقم 33، فهي التي ستنقلني إلى مكان هذه الحلفة، خصوصا وأنها تمر بأمكنة تثير في كثيرا من الذكريات الجميلة منها والحزينة أيضا، إذ أن هذه الحافلة هي التي كانت تنقلني كل

يوم سبت إلى منزل الحبيبة الغالية: «مود» حيث كنت أقضي أروع الأوقات في حضرة فتنتها الرهيبة وجمالها الأخاذ الذي لايقاوم. كما أن هذه الحافلة ذاتها هي التي شهدت بداية ابتعادنا عن بعضنا البعض ولحظات فراقنا الكئيب. وهي الحافلة أيضا التي كنت أذهب فيها إلى المسبح البلدي صباح كل يوم أحد، حيث كنت أقوم بالتمرين على إتقان السباحة، والتمتع بمنظر النساء الفاتنات وهنّ يسبحن كإناث البجع الأبيض. كانت الحافلة هذه المرة تسير على غير عادتها، بسرعة أكثر من اللازم. لعل سائقها قد تباطأ في بعض المحطات السابقة، فأراد تعويض ذلك بالزيادة في السرعة. كنت مشدودا إلى النافذة أرى من خلالها عالما جميلا يجري أمام ناظري، وسرعان ماعلقت عيني بفتاة آية في الجمال، كانت تسوق سيارتها في محاذاة الحافلة، وتلوح برأسها في تناسق حركي مثير. أكيد أنها كانت تسمع لموسيقى معينة، وإلا لما استطاعت أن تحافظ على تمايلاتها تلك. ابتسمت لها كثيرا حيث رفعت عينيها نحو نافذتي، لعلها شعرت بتحديقاتي وبنظراتي المصوبة نحوها، لعلها شعرت بنسمات روحي تخترق نسمات روحها، فتدفعها للنظر إليّ، لعلها فقط شعرت بالخوف وهي تمر بالقرب من الحافلة المسرعة فرفعت بصرها تريد معرفة مدى قرب سيارتها منها، لكي تتجنب إمكانية حدوث الاصطدام، كما ادعى صديقي العربي، حين كنت أحكي له قصة ذهابي إلى الحفلة الراقصة، إلا أن ماهو مؤكد أنها قد نظرت صوبي وأنها قد بادلتني الابتسام تباعا، بل الأكثر من ذلك أنها قد لوحت لي بيدها مودعة، حين تجاوزت بسيارتها الرائعة الحافلة التي كنت أركب فيها بالرغم من السرعة التي كانت تسير بها هذه الحافلة، ولما اختفت عن ناظري، وجهت بصري نحو وجهات أخرى، لكن صورتها ظلت عالقة بذهني، ولما نزلت من الحافلة، في الموقع الذي وصفه لي صديقي العربي، قررت ألا

أتوجه مباشرة إلى مكان الحفلة، فكرت أولا في احتساء بعض الشراب الروحي، حتى تعود إليّ ذاتي الهاربة مني، وأستعيد انطلاقاتي ومرحي.

- 3 -

دخلت مقهى «الجن الأزرق»، مقهى عتيق، يقع في أحد الأركان المنزوية، غالبا ما لايلجه إلا السكارى ومدمنو الأحزان، لكنه كان يعجبني، شيء غريب وغير محدد كان يدفعني للدخول إليه، والجلوس في أحد مقاعده الخلفية، واحتساء بعض كؤوس البيرة هناك، وكثيرا ماكنت أرغم حبيبتي «مود» على مرافقتي إليه، وكثيرا ما كانت تخضع لرغبتي، لاسيما حين أعدها بقراءة بعض الأشعار التي كتبتها فيها عليها. كان هذه المرة شبه فارغ، لايوجد فيه إلا رجلان وامرأة واحدة، ذهبت محاسنها كلها ولم تترك لها سوى آثارها. تذكرت المثل الشعبي المغربي الذي يقول : «إلى مشئ الزين، كتبقى حروفو» وابتسمت، ظننت أنني ابتسمت لها فردت على ابتسامتي بأخرى أحسن منها، خفت أن تأتي نحوي، فغيرت اتجاه نظراتي، جاء النادل، يسألني عما أرغب فيه، أخبرته بطلبي. ذهب وعاد سريعا يحمل زجاجتي بيرة من النوع الممتاز، أشعلت سيجارتي الوحيدة المتبقية لي في العلبة. وتذكرت العظيم دوستويفسكي. لدى رغبة قوية في أن أصبح كاتبا كبيرا مثله. إنه واصف بارع لخفايا النفس الإنسانية، شربت الزجاجة الأولى، أو على الأصح شربت مايوجد فيها، لماذا تخوننا اللغة دائما حين نريد التعبير بها؟... تابعت الشرب من جديد. طلبت زجاجات أخرى. تذكرت هذه المرة البوهيمي بودلير، يعجبني كثيرا هذا الشاعر، تثيرني قصائده. إنه يشيد عالما رهيبا من الصور اللامألوفة. نظرت إلى ساعتي، كانت تشير إلى حدود الثامنة، قررت أن أخرج،

فوقت الحفلة الساهرة قد حل. أديت ثمن ماعلي وقصدت مكانها المعلوم لي.

-4-

كان مكان الحفلة قد حدد في السابق في الحي الجامعي الذي يحمل إسم «esplanade» وهو حي جامعي يعد من أرقى الأحياء الجامعية التي توجد بمدينة ستراسبورغ. كنت عقدت العزم قبل التوجه إليه أن أمر على صديقي الحميم عبده لآخذه معي إلى الحفلة، فهو يجيد فن الرقص مثلي وربما أحسن، كما أن أفضاله علي كثيرة. وهو لحد الآن لم يستطيع أن يجد رفيقة لأحلامه الواسعة. وقد عذبه ذلك كثيرا. كان يقضي الليالي الطوال حين تذهب برأسه الخمرة في الحديث لي عن شعوره الرهيب بالوحدة. بغياب المرأة الحبيبة، وكان غالبا مايظهر لي غبطته حين كنت أتعرف على إحدى الطالبات اللواتي كن يدرسن معي سواء في شعبة السوسيولوجيا بالكلية أو فن الإخراج السينمائي في المعهد الوطني، وكنت أشد ما أخشى أن تتحول غبطته العادية هاته مع مرور الوقت إلى نوع من الحسد الذي قد يقتل نهائيا صداقتنا الجميلة التي كنت حريصا جدا على استمراريتها. لكن رحابة صدر عبده ونقاوة الدماء التي تسري في شرايين قلبه الذهبي، إضافة إلى سعة أفقه الفكري، ماكانت تسمح له، إن على وعي أو على غير وعي، أن يقع في براثن هذا الداء الخبيث، لهذا فلم تتجاوز أمنياته مجرد العثور على صديقة له فحسب، متمنيا لي نجاحا مستمرا في علاقاتي مع بنات أفروديت حتى وإن تعددت أعدادهن. كنت بالفعل، كما قلت، أريد أن أصطحبه معي إلى هذه الحلفة بالرغم من يقيني بأنني واجده فيها دون أدنى شك، فمثله لايمكن أن يترك مثل هذه الفرصة تفوته، وهو على علم قوي بوجودهن فيها،

وبإمكانية ربط علاقة مع إحداهن. ومع كل يقيني هذا، عاتبت نفسي على عدم الذهاب إليه، لكن هذا العتاب سرعان ماتلاشى حين أبصرته يختال في أرجاء البهو، ينتظر أحدا ما ليشجعه على الولوج إلى حلبة الرقص التي بدأت تمتلئ بالقادمين والقادمات إليها. ناديت عليه، فأقبل نحوي مسرعا، تظهر على ملامحه دهشة بارعة، ويكاد ينط الفرح الطفولي من أعماق عينيه. عانقني بحرارة ذكرتني بأصدقائي القدامى في المغرب. أعاد إلى قلبي دفئه الحقيقي، دفء الإحساس بأنني لست واحيدا في هذا العالم الغربي. شعرت لحظتها بما أشعر به وأنا بين أحضان كل جميلات العالم اللواتي عرفتهن، لقد شعرت بأني غني بأصدقائي الحقيقيين، غني بأبناء تربتي وبوهج ذلك العطر القادم إلي من ربوع الشرق العربي، من بلدي الحبيب : المغرب.

- 5 -

أدينا معا ثمن الدخول. مساهمة بسيطة تتحدد في 50 فرنكا فرنسيا، أي مايساوي في ذلك الوقت حوالي 50درهما مغربيا. اعتزلنا ركنا قصيا، وجلسنا نتحدث كما يفعل الناس العقلاء، كانت نظراتنا تخترق الفضاء جزءا جزءا. كل واحد منا يبحث عن العروس الذهبية التي قد توافق هواه الرجولي، وكانت الأجواء مهيئة للاشتعال العاطفي فالموسيقى هادرة بقوة لاتستطيع معها الأجساد إلا أن ترتمي في حلبة الرقص، قاومت من جهتي كثيرا حتى لا أنصاع إلى مناداة الجسد الذي بدأ يعلن تمرده علي، لاحظت أن صديقي عبده كان هو الآخر يعاني مثلي من كبح جسده، نظرنا بعضنا نحو بعض، ابتسمنا معا ودخلنا كثورين هائجين إليها، ابتعدنا عن بعضنا وغاص كل منا بحثا عن جسد أنثوي، رقصت كثيرا، كانت الأضواء تملأ عيني، فلم أعد أبصر إلا

ذاتي. تسربت آثار الشراب الروحي الذي اكتسحته في المقهى إلى كل خلايا ذاتي، وأعاد إحياء فعلها، فلم أشعر بشيء. كان جسدي يثور وينتفض، كما هو العصفور الذي بلله القطر. وكنت رغم كل هذه الحرارة المحيطة بي، أكاد ألمح طيف جسد جميل يقترب مني، يريد أن يعانق جسدي ويتراقص أمامه كفراشة تائهة وسط ضياء جهنمي، سمحت له أكثر بالاقتراب إذ فسحت له مكانا بالقرب من جسدي، لاحظت أيضا أن هناك جسدا رجوليا كان يلاحقه بقوة، جسدا أعرف صاحبه، فهو يدخل ضمن دائرة أهل بلدي. حاول حين رآني أن يملأ المكان بدلي، سمحت له بذلك احتراما. تمادى في هجومه. ابتعدت، ثم ابتعدت ولما رأيت جنونه يكاد يطفح بالشر، خصوصا وأن جسد الأنثى لم يرد أن يفارقني، انسحبت من الحلبة على مضض مني، واتجهت صوب أحد الكراسي المنعزلة في أحد أركان الصالة وجلست، مسحت العرق الذي يتسرب مني، وما كدت أنهض لأخذ كأسا من الماء البارد لإطفاء النار التي اجتاحتني كليا، حتى أبصرت أنثاي قد لحقت بي، قدمت لي كأس الماء وأخذت كرسيا وجلست بالقرب مني، شعرت بأن هناك نظرات صاعقة تحدق فينا معا. رفعت عيني صوب الاتجاه المحدد، أبصرت عبد الكريم. حياني بغضب وناداني نحوه، اعتذرت للفتاة التي بدت من لجهة كلامها ومن الملامح الغالبة على تقاسيم وجهها البرئ أنها إيطالية الأصل، وتوجهت إليه. ترى ماذا يريد مني هذا الشاب العدواني الشهير بعراكاته مع معظم الطلبة، إن الفرنسيين منهم أو حتى العرب؟. داخلني خوف كبير، لكني تمالكت نفسي واصطنعت ابتسامة صفراء على وجهي، ومددت له يدي مصافحا. بدت الشرارة الرهيبة تختفي من وجهه، واطمأنت سريرته إلي، إذ سرعان مابادرني بقوله :

لقد كنت أعرف أنك لاتعلم برغبتي في اصطياد تلك الأنثى؟

قلت له مداريا ارتباكي :

- أي أنثى تقصد؟ إن الإناث هنا يتراقصن بكثرة، لك أن تختار أي واحدة منهن فتأتي إليك عن طيب خاطر. خصوصا وأنت تعلم أن أغلبيتهن الآن، قد شربن كثيرا، وتقلصت من جراء ذلك مما نعتهن.

نظر إلي مليا، وحاول أن يغير لهجته الأولى، إذ لاحظت حدة في كلامه الجديد الذي صوبه نحوي كقذيفة :

اسمع يا عزيزي، إن ماأريده الآن بالضبط هو النوم مع تلك الأنثى، وما عليك إلا أن تبتعد عنها وإلا ...

قلت له مقاطعا، وقد حاولت إخفاء اضطرابي، وعدم الظهور أمامه بالضعف، خصوصا وأنني على علم بمقدوراتي الجسدية، وأن بإمكاني الانتصار عليه وتأديبه كما ينبغي. لكنني كنت أخشى، مثل باقي الطلبة الآخرين من تهوره وإمكانية طعنه لي غدرا بسكينته التي أصبحت معروفة لدى الكل لكثرة ما أشهرها في وجه خصوصه :

- ولكنها هي التي تتبعني. وقد لاحظت ذلك.

قال وقد ازداد غضبه :

- ولكنك يابني، كنت تبتسم لها كثيرا وتتفنن في الرقص أمامها حتى أغريتها بك، وجذبتها نحو عالمك. ابتعد عنها أحسن لك. وألا فإنك ستؤدي ثمن غلطتك غاليا.

انفعلت لكلامه، وظهرت ملامح الغضب على وجهي وقلت له دون أن أبالي بعاقبة كلامي :

- هل تظن نفسك وصيا علي، هل تعتقد نفسك بالفعل طرزان حقيقيا، إنك لاتعدو أن تكون نمراً من ورق، عد إلى نفسك ياولدي!

ابتعد مني مجددا توعده لي، فعدت أدراجي إلى مكاني الأول. رأيت صديقي عبده قلقا من دخولي في خصام مع عبد الكريم، الذي كان معظم الطلبة يلقبونه بالمجرم الخطير. دعاني للخروج من الصالة، والذهاب إلى الحديقة المحيطة بها قصد استنشاق بعض الهواء الطلق. لبيت طلبه، وما كدنا نغادر الصالة حتى لحقت بنا تلك الأنثى التي كانت وراء مشاداتي مع عبد الكريم، حاولت الابتعاد عنها، لكنها أصرت على مصاحبتي، طالبة مني منحها فرصة للدفاع عن نفسها أمامي والاعتذار لي عما سببته لي من مشاكل كنت في غنى عنها، ابتعد عني صديقي عبده لما رأى استعدادي لسماعها وطلب مني بإشارة منه أن أتخلص من مرافقتها سريعا حتى لا أهيج الثور الوحشي المغرم بها، فهو لاشك يتابعنا الآن من بعيد.

-6-

اعتزلنا أنا وهي في زاوية تقع تحت الأضواء الخافتة. كانت بالقرب مناشجرة وارفة الظلال، وكان الجو اللطيف الهادي، يحمل لنا عطر الورود، قدمنا بعضنا لبعض، علمت من خلال حديثها العذب أنها فتاة من أصل إيطالي كما توقعت في اللحظة التي أبصرتها فيها. كانت تقاسيم وجهها الوضاء توحي بالأنفة والأصل العريق في الثقافة والنفوذ السلطوي معا. علمت أيضا أنها تتقن العزف على البيانو، وأنها تكاد تفنى وهي تعزف السيمفونية الخامسة لبتهوفن. خلت نفسي أعيش في حلم، إذ لم يخطر ببالي أبدا في يوم من الأيام أنني قد أتعرف على فتاة مثلها.

حدثتها أنا كذلك على طموحاتي في الحياة، عن رغبتي العميقة في كتابة رواية عميقة تبين العلاقة التي تربط الشرق بالغرب، وعن أمنيتي في أن أصبح يوما ما أحد المخرجين السينمائيين العالميين،

بعد هذا تطرقنا إلى ذكر عبد الكريم، ذلك الشاب اللامبالي الذي لايترك أحدا يعيش في هدوء، أخبرتني أنه منذ انطلاقة الحفلة الراقصة وهو يضايقها، تذهب يمينا يذهب هو الآخر يمينا، تهب نحو اليسار، تجده أيضا قد هب نحوه. تلج إلى الوسط وتحتمي بالأجساد المنتفضة تحت هدير الموسيقى، يندس وراءها غير مهتم بصيحات الاستنكار التي يسمعها، لم يبتعد عنها إلا حين وجدها ترقص بالقرب مني. بينت لها سبب ذلك، فهو يعرفني، ولدينا أصدقاء شبه مشتركين، ولكن لا أحد يرغب في استمرار معرفته به، إنه لايرعوي عن ارتكاب الحماقات في سبيل الوصول إلى أغراضه، جددت اعتذارها لي، وطلبت مني أن أعود معها إلى حلبة الرقص إن لم يكن عندي مانع، أحسست أنني قد وقعت في غرامها، وأنني لن أستطيع بعد هذه اللحظة أن أفارقها، وليحصل مايحصل، لست أول عاشق يموت في سبيل إنقاذ عشيقته من براثن الوحش الذي يسعى لابتلاعها، استحضرت حكاية هاينة والغول وابن العم الذي فعل العجائب للظفر بها.

قررت أن أحكي لها هذه الحكاية حينما تسمح لنا الظروف بذلك، فهي حكاية خالدة جديرة بأن تروى، وأن تنتقل من ثقافة لأخرى.

ـ 7 ـ

وصلنا إلى حلبة الرقص مع بداية «رقصة الأشواق» ابتدأت الموسيقى هادئة لتنفجر فيما بعد شيئا فشيئا. وقفت وجها لوجه مع «هيلين»، كان جسدها مستعدا للتحرك وكان جسدي مستعدا للحاق به، تمايلنا معا، الجسد قرب الجسد، الساق تلتف بالساق، اليد تساير اليد، تموجنا كتموجات البحر الثائر، مدفجزر، فمد فجزر، ثم انتفاضات متتالية، لم يعد يعي الجسد فيه موقعا محددا لانزياحاته ولا لتمايلاته، تارة ذات اليمين، وتارة ذات الشمال،

وأخرى مابينهما، وحين انغمسنا في سحر الرقص، وكشفنا عن اللهب العميق الذي يعتمل في الدواخل ويسعى للانفجار بين لحظة وأخرى، أحسسنا معا، هي وأنا، أنا وهي بأننا نسبح في عالم لانهائي، أبصرت لحظتها صديقتي هاته، ذات الشعر الذهبي المترقرق كترقرقات مياه أم الربيع التي كنت أسبح فيها أيام طفولتي، تتحول إلى حمامة بيضاء، كل مافيها يغري بالعشق، بالهيام، بالجوى الكلي، فتحولت إثر تحولها هذا إلى صقر رمادي، بسطت أجنحتي حولها، ملأت الفضاء حتى لاتفر مني نحو فضاء غيره، أردت اقتناصها بسرعة الضوء، فانفلتت بسرعة أكثر منها، وأغرتني في ذات الآن بإعادة الكرة من جديد. تحولت إلى رمانة ذهبية، تفتت حباتها من هول اهتزازها العظيم، فتحولت في لمحة البصر إلى ديك ذهبي، يحمل رائحة الشرق تحت إبطيه، وبدأت في التهام الحبات المتناثرة هنا وهناك، أردت الانقضاض على الحبة الأخيرة، فانفلتت مني، وتحولت إلى أفعى مرقطة لم يسبق لي أن رأيت أجمل منها، تحولت على إثرها أنا الآخر إلى ثعبان أسود وأكملنا الرقص معا، لم يعد لحظتها أحدنا يخشى من الآخر شيئا. اقتربنا من بعضنا أكثر، حدقت عيني في عينيها وابتسمنا. أحطتها بذراعي فاستسلمت لي طائعة، تظهر البهجة على تقاسيم وجهها، قبلتها قبلة لم أعرف طعما من قبل أحلى من طعمها. قبلتني هي الأخرى قبلة لم تعرف - على حد قولها لي - أحلى ولاأبهى من مذاقها، سمعنا على إثر القبلتين تصفيقات تعلو وتعلو وتعلو، فاحمر وجهينا خفرا. وتعانقنا وانسحبنا في هدوء انسحاب ملاكين وقد أبصر أن هناك شيطانا أزرق ينظر إليهما متوعدا، شيطانا أزرق يرتدي ثيابا آدمية، كما هو عبد الكريم تماما تماما.

- 8 -

جاء صديقي عبده نحوي، وقد اصفر وجهه، سألته عن السبب فلم يجب بشيء، كل ما قاله لي هو أنه يخشى من انتقام عبد الكريم مني، لقد شاهده وهو يتمزق غيظا حينما كنت أرقص مع «هيلين». ثم شاهده وهو يتحدث مع ثلاثة من أصدقائه مدمني الخمرة والحشيش. ويشير إلى الجهة التي كنت أرقص فيها، ليشاهده بعد ذلك يذهب معهم ويغادرون الحي الجامعي، متجهين صوب «الشاطو» حيث أقطن، شعرت بأن صديقتي «هيلين» ترتجف فزعا وتحاول إخفاء ارتجافاتها، قررت أن أغادر مكان الحفلة في الحال لألحق بهم هناك، إن كانوا ذاهبين إلى حيث أسكن.

نصحني صديقي عبده بأن نذهب لنخبر الشرطة. فقد يقتلونني حين يلتقون بي، خصوصا وأنهم الآن في قمة لحظات سكرهم، تشبثت بي صديقتي «هيلين»وألحت علي ألا أفعل في هذه اللحظة، أي شيء، قد أندم عليه في المستقبل، ودعتني للمبيت عندها حتى يعلن الصباح عن قدومه، وافقها صديقي عبده على اقتراحها، وزكاه هو الآخر، خضعت لرجائهما، شجعني على ذلك أمران. الأول هو خوفي من الصراع مع أناس سكارى، تمتلئ صدورهم حقداً وغضبا علي، وما قد يسببه لي ذلك من خسارات أقلها إمكانية تشويه وجهي بسكاكينهم المجنونة، والثاني هو عدم رغبتي مع كل ذلك، من استعداء الشرطة على هؤلاء الطلبة المساكين الذين خانتهم قوة العزيمة، وتقلبات الأوضاع، فانجرفوا مع رياح الانحراف ولم يعودوا قادرين على العودة إلى سابق عهدهم. قبلت ألدعوة إذن، تعلو وجهي علامات حزن غير مألوف، إذ لأول مرة في حياتي أشعر بأن هناك من يعيث في مسكني فساداً ولا أستطيع أن أفعل حياله شيئا، بل أظل أنتظر...أنتظر حتى يصيح الديك ثلاثا لأعلن موقفي بصرامة.

- 9 -

كانت غرفة «هيلين» تقع في الطابق الثالث، تحتوي على سريرين منفصلين تماما عن بعضهما، كانت تقطن معها صديقتها الإغريقية الأصل «سافو» التي جلست معنا قليلا، لتنسحب بعد ذلك، وتذهب لتنام عند صديقها المغربي ذي الأصل الفاسي. شاب جميل يدرس الهندسة المعمارية، اسمه السي محمد كما سأعلم فيما بعد، حين ستقدمه لي هذه الصديقة، كان شغوفا بالإضافة إلى دراسته بالفن التشكيلي، ويتابع عن كثب تطورات السياسة في العالم، وبالخصوص في المغرب، بقيت وحدي إذن مع الجميلة «هيلين» فاتنة طروادة قلبي، أشعلت المسجلة، بعد أن وضعت فيها كاسيتا لأغاني ليوفيري، هذا الأسد العجوز الذي مايزال مصرا على ملء الدنيا وشغل ناسها. انطلق صوته هادرا وهو ينشد :

- إذا أنت ذهبت -
إذا أنت ذهبت
إذا أنت ذهبت يوماما
ستنسينني
كلمات الحب
لاتهاجر
إذا أنت ذهبت
البحر يأتي دائما نحو الضفة
الأزهار المتوحشة
داخل القمح الكثيف
تأتي دائما...
إذا أنت ذهبت
إذا أنت ذهبت يوما
ستنسينني

جراحات الحب
لاتنفتح
إذا أنت ذهبت
النبع سيذهب دائما لتعزيز النهر
المحبون الجدد
نحو الأيام الجميلة
سيذهبون دائما
إذا أنت ذهبت
إذا أنت ذهبت يوما ما
كل شيء سينتهي
أشياء الحب
لاتعيش
إذا أنت ذهبت
الموت سيقهر دائما زهر العمر
إنها صنيعته
رغم الحب
الذي يموت دائما
إذا أنت ذهبت
إذا أنت ذهبت يوما ما
تذكري :
كلمات الحب
لاتتوارى
إذا أنت ذهبت
بعيدا عن الحياة، نحو النور
حيث الصلوات
لن تصل أبدا

إنها قد فقدت
إذا أنت ذهبت
إذا أنت ذهبت يوما ما
داخل هذه الزوايا
سنتكلم عن الحب
كما في الذي مضى
إذا كان ذلك ممكنا (1)

10 , Les Nouvelles éditions miridian

حين انتهى ليوفيري من غنائه الهادر هذا، كنت ملتصقا بصديقتي «هيلين» وكانت هي غارقة تحت صدري، تسمع بعمق إلى دقات قلبي الذي كان يتابع كلمات الأغنية وروعة الموسيقى المصاحبة لها. قامت ببطء لتطفئ المسجلة، وتعود كما أفروديت الفاتنة، لتجلس بالقرب مني، كنا ننظر إلى بعضنا البعض، وكانت عيوننا ترسم قلبين وقد اخترقا من الوسط بعنف بسهمين. اقتربت مني أكثر، فوضعت يدي على شعرها الذهبي وبدأت في مداعبته، حدثتها لحظتها عن حكاية هاينة والغول وعن ابن العم الذي ذاب في عشقها، وقدم ذاته هدية لإنقاذها. وحين استطاع تحقيق الانتصار على الغول وهبته ذاتها عن طواعية. وقامت بتزويج نفسها إليه، تخيلت وأنا أحكيَ لصديقتي «هيلين» هذه الحكاية، أنها قد وضعت نفسها موضع هاينة، ووضعت عبد الكريم موضع الغول، وقبل أن تضعني موضع ابن العم، رفعت رأسها نحوي، وعيناها الجميلتان قد امتأتا دموعا، مستطلعة رأيي في إمكانية وضعي في ذلك الموضع. أجبتها عن استطلاعها الصامت ذالك بتوليحة من رأسي تعني الموافقة. فضمتني نحوها بقوة، ووهبتني ذاتها، حتى قبل أن تشهد انتصاري على الغول.

* هوامش الفصل الثامن*

1) ـ ليوفيري، ديوان «الأغاني».

منشورات والقصيدة من ترجمة:

نور الدين محقق. وقد اخترتها للجمالية الأدبية التي تمتاز بها، وللإحساس العميق بأهمية الحب الإنساني الذي تدعو إليه، إنها من أروع القصائد ـ الأغاني التي قام بتأديتها المغني ليوفيري.

الفصل التاسع

زوار الليـــــــــل

- 1 -

استيقظت متأخرا بعض الشيء، فمن عادتي ألا أنهض من فراشي إلا في حدود الساعة العاشرة. إنني نائم الضحى، لكن من كسلي لا من غناي وثرائي المادي، كانت الساعة تشير إلى الحادية والنصف، لم أجد بالقرب مني فاتنتي ومفتتة ذرات قلبي «هيلين». يبدو أنها قد استيقظت باكرا. وجدت الفطور مهيأ فوق الطاولة. أخذت ماتيسر من بيض مسلوق وحليب دافئ وخبز طري. ثم ارتديت ملابسي العادية بعد ذلك، وخرجت. وجدت صديقي عبده في الصالة ينتظرني. لم يكن من عادته أن يفعل ذلك، تبدو على ملامحه علامات غضب مكتوم وحزن دفين معا، وربما بعض التألم. قصدته محييا، وابتسامة متكلفة تعلو شفتي. سلم عليّ، وانزوى مني بعيدا. أخبرني بعد تردد مشوب بالحسرة بأن التتار قد هجموا على بيتي وعبثوا بكل ما أملك. كسروا معظم الأواني التي وجدوها فيه، دمروا مسجلتي الصغيرة التي أهدتها لي الرائعة «مود»، ومزقوا أوراقي كلها. ارتجفت غضبا ورهبة، وتذكرت ديوان شعر، كنت قد انتهيت من كتابته، حملته كل أشواقي نحو صديقاتي كلهن. تذكرت لوحة تشكيلية جميلة، أهداها لي صديقي يوسف كباري، الفنان التشكيلي الجميل، تذكرت رسائلي التي تلقيتها من كل أحبابي، لم أتمالك نفسي إزاء هذه العاصفة التي اجتاحتني، فبكيت. استعدت جملة مثيرة، لعلها عنوان لإحدى الروايات التي قرأتها أو لأحد الأفلام التي شاهدتها. الجملة تقول : الرجال يبكون أحيانا، عانقني صديقي عبده. مخففا عني بعض ما أشعر به من هزيمة، لم أرد أن أخبره بما قرّ عزمي على فعله، وإن تظاهرت أمامه بالتجلد، كانت أفكاري موزعة بين الانتقام وبين العفو. لكن العفو، في نظري، لاسيما أمام الأوغاد، كان ضعفا. قررت ألا أعفو إذن، سأنتقم، لكن بطريقتي.

كان من أول الأشياء التي أذعتها هو كوني قد أخبرت الشرطة بما وقع لي وحددت المتهمين بأسمائهم، في مقدمتهم المدعو عبد الكريم وصديقيه بوشعيب وكبور. وكانت مديرة القصر الأثري الذي أقطن في إحدى حجراته، على استعداد للإدلاء بشهادتها، خصوصا وأن هؤلاء المجرمين الثلاثة، قد سبق لهم أن كسروا معظم معالم حجراتهم حين كانوا يقطنون في هذا القصر. وأنها مازالت تشعر بالحقد الدفين حيالهم. أذعت أيضا، أنني قد فقدت إضافة إلى الأشياء المكسرة والأوراق الممزقة، مبلغا ماليا كبيرا، حددته في عشرين ألف فرنك فرنسي، زيادة على خيمتي الاصطياف، الأولى كبيرة، مخصصة لأزيد من خمسة أفراد، والثانية صغيرة مخصصة لشخصين فحسب. وأنني لن أتنازل عن أي من هذه الأشياء التي فقدتها. كما أذعت أيضا أنني قد أخبرت الشرطة بأنني مهدد في حياتي، وأني لا أعدو حين أهاجم من لدن هؤلاء الأشخاص أن أكون مدافعا عن نفسي. ثم انتظرت النتائج.

-3-

كنت أذهب إلى كافتريا Esplanade، وهي تابعة للحي الجامعي الذي يحمل نفس الإسم، وأستقي الأخبار حول الحادثة التي وقعت لي، دون أن أظهر أي ضعف أمام أي أحد، مهما كانت متانة العلاقة التي تربطني به، بل كنت أتظاهر بأنني لا أعير الأمر أي اهتمام، خصوصا وأن ملف الحادثة قد أصبح في يد الشرطة، وأنها تتابع الأمور عن كثب، وأنها قد استدعتني، لأتعرف على صور المتهمين، واحدا وراء الآخر. وبدأت أقوالي التي كنت أذيعها بشكل تلقائي تحدث وقعها العميق في أنفس المجرمين، مرتكبي مجزرة يوم السبت، مجزرة إتلاف الأواني وتمزيق الأوراق، ومحاولة البحث عني قصد تأديبي على حد ادعاءاتهم المغرضة، ادعى المجرمون الثلاثة

في بداية الأمر، أنهم بريئون من ارتكاب الحادثة، وأنهم لم يغادروا في تلك الليلة مكان الحفلة، وأنهم يتوفرون على شهود كثيرين يؤكدون صدق أقوالهم. وأنهم إضافة إلى ذلك، فهم على استعداد لإذاقة كل من يشهد لصالحي علقة من الضرب المبرح، لن ينساها طول حياته. ثم بدأوا يتراجعون عن تهديداتهم، حين قرر أربعة من الطلبة الأجانب، الذين شاهدوا وحشية هجومهم على بيتي وتكسيرهم لبابه والدخول إليه، عابثين بكل الأثاث الموجود فيه، وبدأ يقرون بارتكاب الحادثة، ويقسمون تباعا وأمام معظم الطلبة الذين أعرفهم بأنهم لم يفعلوا سوى تكسير الأواني وتمزيق بعض الأوراق التي وجدوها على مكتبي. وحين كان يسألهم هؤلاء الطلبة عن النقود التي أخذوها وعن خيمتي الاصطياف، كانوا يظهرون تعجبهم، ويقسمون بأغلظ الأيمان بأنهم لم يأخذوا لا النقود ولاخيمتي الاصطياف. وكلما أبديت تجاهلي لهم، وأصررت على المتابعة القضائية، كانوا يزدادون انكساراً، حيث بدأوا في استعطافي، موسطين لهم في عمليتهم تلك أحد أعز أصدقائي على رغم عدم اشتراكي معه في كثير من الأمور. صديقي المغربي، ابن طنجة العالية، السي علي. الذي رجاني من أجل التنازل عن متابعتهم، واعدا إياي بتغريمهم لكل ماتسببوا في إفساده وتدميره. طالبا مني التغاضي عن مبلغ العشرين ألف فرنك فرنسي وعن خيمتي الاصطياف، لأن الأمر لايعدو أن يكون محاولة مني لتضخيم أفعالهم الإجرامية. تبسمت موافقا على صحة رأيه، مخبرا إياه بعد أو وعدني، بأن يظل ماسأقوله له سرا بيننا، حتى لايعود المجرمون أو سواهم إلى ارتكاب مثل هذه الأفعال - بأنني لم أقم بتبليغ الشرطة بما وقع لي، رحمة وشفقة بهؤلاء الطلبة البؤساء، الذين لم يستطيعوا مسايرة التحولات الثقافية والاجتماعية التي وجدوا أنفسهم قد وضعوا فيها، بعد أن كانوا يعيشون في قراهم

البعيدة هناك في بلدهم العربي، على عكس بعض الطلبة العرب الآخرين، الذين استطاعوا أن يحققوا نجاحا كبيرا، إن في دراساتهم الجامعية أو في قوة اندماجهم في قلب المجتمع الغربي، ممثلا بفرنسا، بل والتفوق في ذلك حتى على الكثير من أبنائه. وخير من يمثل هذا النوع من الطلبة، صديقي عبده، هذا الفتى القادم من مدينة «سطات» المغربية. فهو قد كان يحير أساتذته في قوة ذكائه، وقدرته الخارقة على فك معضلات المسائل الرياضية التي تقدم له وإيجاد أكثر من حل لها. كان صديقي عبده هذا، لايطيق ذاته، في بداية التحاقه الجامعي بفرنسا، حين لايحصل على نقطته المعتادة، وهي لاتقل على 19 على 20، في مختلف المواد العلمية التي كان يدرسها. لاسيما في مادة الجبر. والغريب في الأمر، أن استعداده التحضيري لأيام الامتحانات قد كان يبدو عاديا، فهو لايسهر كثير، ولاتراه طيلة الوقت حاملا لكتبه، كشأن معظم الطلبة الآخرين، وأنا واحد منهم وإن بشكل مغاير، بل كانت له أوقاته الخاصة التي يراجع فيها مايراه محتاجا لمراجعته من مواد، دون أن يتجاوز حدود هذه الأوقات. وكانت نتائجه تأتي باهرة، كفلق الصبح، حتى أنه في بعض الأحيان، لاسيما بعد أن حقق لذاته كبرياءها، كما يجب ولم يعد ينظر للأمور بمنظار نوعية النقطة المحصل عليها فحسب، بل بمنظار آخر، يراعي فيه حتى شعور الطلبة الآخرين، لاسيما الفرنسيين منهم، تجاهه، أصبح يرتكب بعض الأخطاء في أوراق امتحاناته حتي لايثير مزيدا من الحسد لديهم، وكان، حين أغضب منه على تصرفه ذلك، يقول لي ضاحكا بأن المهم هو نجاحه، وبدرجة جيدة، وهو مايحققه دائما، فأظل حائرا حيال منطقه ذلك. وأرى في كثير من الحالات أنه على صواب فيما يقوله ويفعله. إذ ما أصعب أن تصبح محط أنظار الآخرين وبؤرة تفكيرهم، إن خيراً أو شرا. إذ ويل لمن أشارت إليه الأصابع، وواحزن أمه عليه.

عدت إلى بيتي القابع وسط غابات من الصنوبر الجميل، تحيط به الأشجار العملاقة من كل جانب، هذا البيت الذي هو عبارة عن حجرة صغيرة، لكنها فاتنة إن على مستوى موقعها أو تناسقها الهندسي، تقع في الطابق الأعلى من القصر الأثري، الذي شهد ويلات الحرب العالمية الثانية، وسجل في ذاكرته الصراعات القوية منها، التي كانت ناشبة بين ألمانيا وفرنسا في تلك الفترات العصيبة من تاريخ الإنسانية جمعاء، إذ غالبا ما كنا نجد فيه، بعد الطوابع البريدية التي تحمل صور النازي هتلر، وبعض الأوراق المكتوبة باللغة الألمانية، والتي تبدو من الصفرة المهيمنة عليها، أنها قد كتبت في ذلك الوقت البعيد. وجدت باب البيت - الغرفة مفتوحا ذلك أنني لم أجدد قفله بعد، ولم أقم بإصلاح الأعطاب التي وقعت لمدخله. نظرت إلى كل أركانه وكأنني ألج إليه للمرة الأولى. لا أدر لماذا استحضرت صورة التتار، وهم يمرون بخيولهم الجامحة على كل مايعترض طريقهم. كان مكتبي يبدو كئيبا، يشعر بظلم فادح قد تعرض له، ولم يجد من يعيد إليه اعتباره. وكانت الكتب التي فوقه، يكاد الدمع ينط من أعينها، تبدو أوراقها ممزقة، والحروف فوقها قد لبست ثوب الحداد، وكانت المسجلة الصغيرة، التي شهدت أيام عزها، أصوات كل من إديت بياف وليوفيري وشارل إزناڤور تصدح من داخلها بقوة، كما شهدت أصوات كل من فيروز ومارسيل خليفة والعربي باطما ويونس مكري، تعلن عن تواجدها القوي انطلاقا من دقات قلبها، قد داهمها داء صمت رهيب، سيطر على أعضائها كلها، فبدت كامرأة فاتنة شاخت قبل أوان الشيخوخة. كما كان سريري، يترءى لي مثل عجوز هرم، قد تكسرت أرجله، وبقي جاثما فوق الأرض لايستطيع الوقوف، ينظر إلى المارة، مستعطفا إياهم الرحمة به، ومساعدته على استعادة أرجله الضائعة. وكانت

الأغطية فوقه مبعثرة بدون نظام يحكمها، تبدو، وكأنها بقايا لسلالات ثيابية منقرضة. وكنت وحدي، على حد تعبير الجميل محمود درويش، أبدو في نظر نفسي كفارس عربي، خانته غارته، فعاد مهزوما إلى أرضه، ينذب سوء حظه، وخيانة الأيام له، لكنه مع ذلك يقاوم ويسعى لاستنهاض همه دفعة واحدة، حتى لايشمت به الأعداء.

ـ 5 ـ

حين ارتميت فوق السرير، استرجعت صورة رفيقة دربي «هيلين» وشدة رعبها حين سمعت بما وقع لي، والتحاقها بي إلى كل الأماكن التي أوجد بها، وعدم استعدادها لتركي وحيدا، مهما كلفها ذلك، كما استرجعت الحيل الكثيرة التي كنت أبتكرها للانفلات منها، ومحاولة إيجاد حلول للمشاكل التي وقعت فيها. لم أكن أريد أن أشعرها بأنها قد كانت السبب المباشر في نزول هذه المشاكل علي دفعة واحدة، وأنني لو لم أتعرف عليها، في تلك الحفلة الساهرة، ولولا رقصي معها تلك الرقصة الشهيرة، أي «رقصة الأشواق» لما انتهكت حرمة بيتي وشردت قصائدي، ونفيت بعض أمتعتي نحو أمكنة لا أعرف لها موقعا. كنت أريد أن أشعرها بأنني جلد وأن ما وقع لي مقدرا منذ البداية وأنها فقط قد كانت سببا في تسريع الأمور وإيصالها نحو نهايتها الحتمية. لقد كان عبد الكريم، لايطيق رؤيتي، منذ أن تعرف علي، كان يثيره كبريائي، كما كانت تغيظه أرستقراطيتي، التي كانت تظهر له جد مفتعلة، وكان يتحين الفرصة ليشتبك معي، خصوصا وأنني لم أكن أؤدي له إتاوة الصعلكة التي كان بتخبط فيها، وكنت أتحاشى المجالس التي كان يتواجد فيها. فلما سنحت الفرصة لتحقيق وجوده على حساب الإضرار بي. لم يتردد في ذلك. كنت أريد أن أفهم صديقتي

«هيلين» بأن ما وقع لي زاد من تشبثي بها، ودفعني للوقوف في وجه من يحاول المس بكرامتي، كائنا من كان، بل أعلنت للجميع، وقد سرها ذلك حين علمت به، بأنها حبيبتي، وأن من سيتعرض لها، سأوقفه عند حده، كل ماكنت أريده منها، على الأقل، في تلك اللحظات العصيبة، التي أعقبت ليلة الهجوم، هو أن تبتعد عني قليلا، حتى تترك لي مجالا واسعا للتفكير فيما سأفعله من جهة، ومجالا آخر للقيام بفعله كما يجب من جهة أخرى.

ـ 6 ـ

حاولت أن أغفو بعض الوقت، لاسيما وأن الذكريات قد انهالت علي من كل جانب، كأنها جيوش ثائرة وجدت الفرصة سانحة للتخلص من قائدها المستبد، فما كان مني إلا أن استسلمت لها، لكن الدقات المتوالية على الباب، أو على الأصح على ماتبقى منه، أعادتني إلى يقظتي، فقمت متثاقلا أنظر إلى الطارق، الذي بالرغم من كون الباب كان مفتوحا، لم يجرؤ على الدخول. لقد كان صديقي عبده بلحمه ودمه. عاتبته على عدم الدخول خصوصا وأنه ليس بغريب علي، ولا على عالمي الحميمي. فما كان منه إلا أن أعلن بكونه لاينتمي إلى قبائل التتار. ضحكت للمزته الهازئة هاته، وطلبت منه نسيانهم، خصوصا وأنهم قد ارعووا بعض الشيء عن إزعاج الطلبة الآخرين أو التحرش بهم، كما أنهم وضعوا مسافة بيني وبينهم، أو بتعبير السي علي قد «أعطوني الاتساع». طلبت منه أن يحدثني عن نفسه قليلا، وعن الفتاة السمراء التي كانت برفقته يوم الأحد. ظهرت علامات المفاجأة على ملامح وجهه، من معرفتي بذلك، وسألني عمن أخبرني بعلاقته تلك. قلت له بأنني قد أبصرته رفقتها وأنا ذاهب لتناول غذائي بالمطعم الجامعي العتيق أي "PAUL APPEL"، وأن ليس هناك مايخفى علي،

إن أنا أردت معرفته. تجاهل لهجة التهكم التي حاولت إظهارها في كلامي، كما تجاهلت الإجابة عن السؤال الذي وجهته له عن الفتاة. وخاطبني قائلا، بأنه قد أحضر اللوازم الخاصة لإصلاح غرفتي، وأن علينا أن ننهض الآن للشروع في العمل، لاسيما وأن الوقت لايسمح لنا بعملية الإصلاح هاته بشكل كلي، إلا إذا أردنا أن نضحي ببعض ساعات نومنا، ونظل ساهرين حتى نتم العمل على الوجه الأكمل، طلبت منه أن نترك الأمر، حتى صباح الغد، وألححت عليه في ذلك، خصوصا وأننا إذا باشرنا العمل الآن سنزعج باقي الطلبة القاطنين معنا في «الشاطو». وافق على رأيي مرغما، وطلب مني مرافقته إلى غرفته، لننام فيها. لبيت دعوته بعد أن نجحنا على الأقل في إغلاق باب غرفتي، وإصلاح العطب الذي كان يشكو منه، بشكل مؤقت، وإن كنت أتمنى لو تركني أنام في غرفتي، حتى أتنسم بعض عبيرها، وأسترجع كياني المفتت، لكنه رفض ذلك رفضا قاطعا. وهددني بعدم الحديث معي مطلقا إن لم ألب دعوته تلك. في الطريق إلى الغرفة التي يقطنها، صادفنا بعض الطالبات الأجنبيات، اللواتي كنا دائما نعقد الأمل على الإيقاع بهن، لكنهن كن يتجنبن ذلك، مراعيات حرمة الجوار الذي يربطنا بهن، والعلاقة الأخوية التي بدأت تفرض وجودها بيننا وبينهن بحكم التواجد، في نفس المكان، شيئا فشيئا. حيوننا بابتساماتهن الفاتنة، فرددنا التحية بأجمل منها، وتوجهنا صوب الغرفة القابعة في أقصى الركن، ونحن على عجلة من أمرنا، كأننا نريد إبعاد الرغبة التي تأججت في دواخلنا، حين التقينا بهن.

ـ 7 ـ

كانت غرفة عبده، بسيطة في كل شيء، مثل غرفتي تماما، الأثاث جد عادي، لاشيء يوجد فيه يثير الإحساس بالجمال والروعة. ارتميت حين دخلنا على سرير عبده، وطلبت منه أن يفرش أرض

الغرفة لينام فيها، وإلاعدت من حيث أتيت، فأنا فتى مشهور بأرستقراطيتي، ولاأسمح لأحد بأن يسيء إليها. خضع لتعنتي وكبريائي الزائفين. وقام بإشعال التلفزيون الصغير، الذي يمتلكه، منذ أن جاء إلى هنا. كان الفليم جميلا. مازلت أتذكر بعض اللقطات المثيرة فيه، لقطة صفعة البطل لمحبوبته حين اكتشف كذبها المتكرر عليه، ولقطة موت هذه المحبوبة وهي تصارع مرض السرطان الذي اجتاح كل جسمها، ولقطة البطل وهو يذرف الدموع على قبرها. فيلم رومانسي بسيط، كما يبدو، لكن إتقان الممثلين للعبة التشخيص المنوطة بهم، حولته إلى فيلم مؤثر جدا. فيلم يثير العواطف النائمة ويدعوها للنهوض. فيلم يشيد بقيم الحب الإنساني ويعدد أبعاده. ولقد كانت نهاية هذا الفيلم مثيرة لتعاليقنا حول مادار فيه من أحداث، وحول العلاقة العاطفية التي كان يتكلم عنها، ليتوسع الحديث بعض ذلك ليشمل العلاقات الإنسانية في عموميتها وخصوصية الأخلاق التي يجب أن تسود فيها، ليختم الحديث، بعد نقاش طويل بسؤالاتي لصديقي عبده عن نوعية الإرتباط العاطفي الذي كان يقيمه مع فتاته السمراء، وحول القصائد التي سمعت بعض أصدقائنا ينشدون بعض أبياتها، طالبا منه إنشاد ولو قصيدة واحدة منها.

- 8 -

كانت القصيدة التي قرأها صديقي عبده علي في تلك الليلة الجميلة، قصيدة رائعة، لايمكن للإنسان أن ينساها إذا سمحت له الظروف بقراءتها، إذ مازلت لحد الأن أستحضرها كاملة، حين أسترجع شريط الأيام العظيمة التي جمعتني به، وكم سررت كثيرا، حين وجدتها ذات يوم منشورة في إحدى المجلات الأدبية التي كانت تصدر في ذلك الحين (1).

بعد هذا السهر الطويل، قررنا معا أن ننام، حاولت من جهتي أن أستدعي سلطان النوم إلي، فلم يأت، حاولت مرة أخرى، فلم يلب الدعوة أيضا، بدأت أصوات شخير صديقي عبده تملأ فضاء الغرفة، أزعجني ذلك كثيرا فقمت من فراشي، وارتديت بعض ملابسي، وتسللت دون أن أحدث ضجيجا إلى الخارج. كان الجو صافيا، وكان القمر هناك في الأعالي، يتربع على عرشه الذهبي، انشرحت نفسي قليلا، وزاد من انشراحها أن هناك فتاة جميلة كانت تنظر إلي من إحدى نوافذ غربتها وتبتسم. وحين ابتسمت لابتسامتها الرائعة لوحت لي بيدها اليمنى تستدعيني صوبها، ترددت بعض الوقت، ثم استجمعت أطراف شجاعتي المبعثرة، وقصدتها، ليحدث مايحدث. إن هناك جسدا أنثويا فاتنا ينادي علي، ولم يكن من عادتي ألا ألبي نداء مثل ندائه. نسيت صديقي عبده، في غمرة انفعالاتي المتلاحقة، نسيت أنني قد تركت باب الغرفة غير موصد بالمفتاح. نسيت حتى علاقتي بالفاتنة «هيلين» ووعدي بإخلاصي لها طيلة فترة ارتباطي بها. لم أعد أبصر سوى يد الفتاة التي تلوح لي، لم أعد أبصر سوى بسمها المتلألئة فوق أسنانها البيضاء، لم أعد أبصر شيئا، كنت أمشي مشدوها نحوها. كأنني أورفيوس آخر يلحق بحبيبته الغائبة مستسهلا كل الصعاب للوصول إليها. لم أرد أن ألتفت ورائي، حتى لاتذهب مني فتاتي هاته. كان الطريق يمتد أمامي نحو مالا نهاية، كأنني كنت أسبح في فضاء غير واضح المعالم، وكانت الفتاة تستحثني على الإسراع، حتى لاينتبه أحد لقدومي نحوها. وصلت أخيرا، وجدتها قد فتحت باب غرفتها، والتقتني عنده. دخلت الغرفة، ارتميت على السرير. شعرت بقبلاتها تمطر جسدي محطة محطة. استحضرت لحظتها قصيدة بدر شاكر السياب: «أنشودة المطر»، حاولت استعادة بعض أبياتها الجميلة لاسيما تلك التي تتحدث عن لحظات انبعاث الحياة. لكن

وجه الشاعر الغزلي الكبير نزار قباني، أطل علي من بعيد، منشدا قصيدته الرائعة "اليوميات"، وكأنه جاء ليسعفني في تمثل سحر هذه اللحظات الفاتنة التي أعيشها، فما كانت مني إلا أن رددت دون شعور مني، بعض أبياتها على الشكل الآتي :

ـ لم يحدث أبدا....
أن أوصلني حب امرأة حتى الشنق
لم أعرف قبلك واحدة
غلبتني، أخذت أسلحتي...
هزمتني داخل مملكتي...
نزعت عن وجهي أقنعتي...
لم يحدث أبدا، سيدتي
أن ذقت النار، ذقت الحرق... (2)

ـ 10 ـ

في الصباح، حين التقيت صديقي عبده، بعد أن تركت فتاتي مستلقية فوق السرير، تسترجع لحظات الليلة الماضية بشغف طفولي مثير للشهوة، وتستحثني مستعطفة للعودة للمبيت عندها من جديد، مقسمة لي بأنها ترغب صادقة في إقامة علاقة عاطفية استثنائية معي، لاتشبهها في تاريخ العلاقات العاطفية سوى علاقة روميو بجولييت، أخبرته بمغامرتي المجنونة تلك، وحددت له مكان غرفة الفتاة العاشقة، وأعطيته حتى اسمها، موضحا له إمكانية أن يتعرف على صديقتها الأمريكية الثرثارة التي كنا نراها في المقهى المجاورة لكلية العلوم. والتي كان يبدى إعجابه الشديد بها. والتي على ما أذكر، تحمل اسم بطلة المسلسل الشهير «دالاس» : «سويلين»، ناعتا إياه بالمناسبة باسم «جي إير» قصد إضحاكه وإزالة ملامح «الكعية» على وجهه، الناتجة عن فعلتي السابقة، حين تركه ينام في غرفته وحيدا، دون أن أخبره بما قد

قر عزمي عليه، ودون أن أغلق عليه باب الغرفة بالمفتاح، حتى لايتعرض لما لاتحمد عقباه، لو علم أحد منهم، أن هناك باب غرفة في القصر الآثري لم يوصد، كما تقتضي الضرورة. حاول هو الآخر من جهته أن يتناسى أفعالي الحمقاء تلك، كعادته دائما، خصوصا وأنني في هذه المرة، قد أحسنت إيقاعه في المصيدة التي نشبتها له، واخترت الطعم المناسب لتحقيق ذلك، أي الطعم الأنثوي الجميل، المتمثل في الفتاة الأمريكية.

ـ 11 ـ

قضينا معظم ذلك الصباح، في إصلاح الأعطاب التي تعرضت لها غرفتي، أصلحنا بابها أولا، وقمنا بطلائه بلون وردي، أصلحنا بعد ذلك النافذة الوحيدة الموجودة فيها، والتي تطل على الحديقة الواسعة التي يقع فيها القصر الأثري برمته، والتي كثيرا ما تأتي حسناوات أوربا بأكملهن إليها، قصد التمتع بجمالها الخلاب، من جهة وزيارة المعالم الأثرية المحيطة بها، وفي مقدمها القصر ذاته، من جهة أخرى . أصلحنا أرجل السرير، وأعدناها إلى سابق عهدها، فبدا كإنسان مريض استعاد عافيته للتوّ أصلحنا كذلك المكتب، وقمنا ببرنزته. فظهرت على ملامحه علامات الرضى. وحين انتهينا من عملنا هذا، كانت الساعة قد بلغت الثانية عشر والنصف، فقررنا أن نأخذ غذاءنا في المطعم الجامعي، بدل إعداده في البيت، خصوصا وأن الوقت لم يعد يسمح لنا بذلك. ذهبنا إلى مطعم «PAUL APPEL» لاسيما وأنه المطعم الذي كانت الأمريكية «سويلين» غالبا ماتوجد فيه. أردت الممانعة في البداية، خوفا من أن نجدها صحبة صديقتها الإيطالية «مادونا» التي اقتسمت معها الفراش الليلة الماضية، ولكن إلحاح صديقي عبده لم يترك لي فرصة للممانعة. كان الأمر كما توقعت تماما. لقد كانتا هناك معا.

* هوامش الفصل التاسع*

1)ـ كان من المفروض أن يقدم سارد الرواية، القصيدة التي كتبها صديقه عبده، في وصف علاقته بفتاته السمراء، للملتقي حتى يحكم هو بنفسه عليها. لكن خوفه من عدم إعجاب هذا المتلقي بها، دفعه إلى عدم ذكرها كما وردت في تلك المجلة. وأغلب الظن أن ليس هناك، لاقصيدة ولا ما يشبهها،
وأن ليس هناك وجود حقيقي حتى لتلك المجلة التي أغفل عن عمد إيراد اسمها، هي الأخرى، لكي لايتأكد المتلقي أيضا من صدق وجودها أو عدمه والله أعلم.

2) ـ نزار قباني قصيدة : «يوميات رجل مهزوم»، من ديوان : «قصائد متوحشة»، منشوارات نزار قباني، بيروت (لبنان). 1982. ص: 93.

الفصل العاشر

كذبة أبريل

- 1 -

جئت متأخرا إلى البيت، كانت هناك بعض الأمور التي تثير أعصابي، استطعت أن أفك بنياتها وأعود إلى سابق عهدي من راحة النفس وخلو البال، في كثير من الأحيان، كنت أفتح بعض النوافذ دون وعي مني، ربما عن حسن نية، أو ربما حتى عن سذاجة، فتهب علي الرياح منها قوية، مزعزعة لكياني، فلا أجد في تلك الحال مفرا للصمود أمامها، أو للابتعاد عن مصدرها، حتى تهدأ، فأعود إلى ماكنت عليه من أمور تشغلني، وكانت عادتي أن أمر على بعض أصدقائي قبل أن أتوجه إلى غرفتي، لكني هذه المرة قصدتها مباشرة. لقد كنت متعبا. حين وصلت، وجدت أن هناك رسالة في انتظاري، رسالة تحمل معها عطرا نسائياً مثيراً، ما أن تشم رائحته حتى تستحضر صورة لأجمل امرأة سبق لك أن شاهدتها، فتحت الرسالة ببطء، كنت أريد أن أستمتع حتى بلحظات فتحها، إذ قليلا ما كنت أتوصل بالرسائل، لاسيما من النساء. كن يلتفن لي بكثرة ويقابلنني باستمرار، ولكن من النادر أن ترسل لي إحداهن رسالة. فقط الغالية «مود» هي التي كانت تفعل ذلك، وتفعله فقط حينما نكون على خصام، وتنعدم أمامها كل سبل الاتصال بي، حين بدأت في القراءة، كان قلبي يتراقص فرحا وسرورا، بل ينتفخ غرورا وكبرياء، وكنت غالبا ما أبتسم زهوا بما يقال لي في الرسالة، ولما لم أستطع أن أتمالك نفسي، بدأت أعيد ماورود فيها بصوت مرتفع.

[- عزيزي نوري.

تحياتي القلبية إليك، إليك أنت أيها العربي الأسمر القادم من أرض «الليالي». حين أبصرتك تختال في الكافتيريا، أنت تعرفها جيدا، تخيلت نفسي أبصر هارون الرشيد، وقد عاد إلى الحياة من جديد، كنت مزهوا بنفسك، وأنت دائما مزهو بها، تمشي، كما الطاووس، وتنظر ذات اليمين تارة، وتنظر أخرى ذات الشمال، كنت

أراك غالبا تجلس وسط مجموعة من الفتيات الجميلات، وتضحك معلنا عن سحرك العربي الذي لا يضاهى، كنت أنزوي في ركن الكافتريا، وأتمنى أن تشعر بوجودي، ولكنك دائما تكون غائبا. لاتشعر أيها المغرور، إلا بذاتك. فأظل أتألم إلى أن أعود إلى بيتي لأنخرط في البكاء، وكنت غالبا ما أحكي لصديقتي الحبيبة پولا عنك، فتنصحني بأن أحدثك بما أشعر به نحوك من إعجاب، ولكني كنت لا أستطيع فعل ذلك، إذ ما أن أبصرك قادما حتى ترتجف ذاتي، وتخور قواي، ترى أي سحر فيك، وأية قوة في تلك الفتيات الجميلات اللواتي استطعن الظفر بمحادثتك؟ إني أريد أن أعرف، لهذا فقد قررت، بعد تشجيع صديقتي لي، على أن أكتب إليك رسالة أخبرك فيها بما أعاني، وأبعثها لك، عل وعسى أن ترأف بي وتحدد لي موعدا للقاء بك. وبما أنني كتبتها وهي التي تقرأها الآن، فإني أتجرأ لأقول لك بأن تنتظرني في مقهى «ميلانو» على الساعة الرابعة زوالا، سأكون مرتدية ثوبا أحمر دلالة على قوة حبي لك. وأحمل في يدي وردة حمراء أيضا، فلا تتردد إن أبصرتني أن تأتي إلي، وتدعوني بعد محادثتي معك إلى غرفتك. إني أريد أن أراها، أريد أن أعرف المكان الذي ينام فيه حبيبي هارون الرشيد!

أرجوك أن تأتي، لاتخيب أملي فيك بعد أن تعلقت بك.

حبيبتك رغما عنك

- كاترين -

ملاحظة : لاتنسى مكان اللقاء مقهى «ميلانو»

لاتنسى زمان اللقاء : 4 زوالا، يوم 83-04-03

- 2 -

في الصباح الباكر نهضت، كان علي أن أزيل كل ماعلق من وسخ بالغرفة، أن أعيد تنظيفها بكاملها من جديد، فلم يبق على موعد لقاء «كاترين» سوى يوم واحد، لم أرد أن أخبر أي أحد بسر الرسالة الغريبة التي توصلت بها، لاحظت أن بعضهم كان ينظر إلي وأنا أعيد ترتيب هيأة غرفتي بنظرة ماكرة. فيها خبث كبير وفيها سخرية مبطنة، أرجعت الأمر إلى توهماتي بأن أحداً مايعلم بسري، وبأن هناك شيئا ماغير عادي. أتممت تنظيف الغرفة في حوالي الساعة الثانية عشر وربع، ذهبت إلى الحمام، بعد ذلك، شعرت وأنا تحت الماء الدافيء المنهمر منه، كأنما أعيد خلق كياني. كان جسدي يتجاوب مع تدفق الماء بشكل رائع، تنفتح كل ذراته لتحتوي مايصل إليهامنه، وكانت روحي تشعر براحة عظمى من جراء ذلك، حين انتهيت، توجهت صوب غرفتي مباشرة، ارتميت فوق السرير وأغمضت عيني في انتظار نوم عميق، لكن صديقي عبده سرعان ماجاء، فتحت له باب الغرفة، وطلبت منه الدخول، وكانت مفاجأتي سارة، حينما وجدته قد دخل وهو يحمل معه غذاء شهيا لي، دجاجة محمرة ولوازم أكلها، شكرت له صنيعه، حتى قبل أن نبدأ معا في آلتهامها، قال لي، ونحن نفعل ذلك بأنه قد رآني منهمكا في عملي، فسر لذلك، لقد أراد أن ينبهني مراراً إلى ضرورة تنظيف غرفتي، لكنه لم يجرؤ على ذلك خوفا من غضبي، سألني بعد أن انتهينا من الأكل عن السبب القوي الذي دفعني للقيام بذلك. لم أرد أن أخبره الحقيقة، قلت له بأني أنا الآخر، قد أتعبني منظر الغرفة الذي أصبح لايطاق، فقررت فجأة أن أقوم بشيء لتحسينه، وكان ماكان. غيرت، بعد أن تتابعت أسئلته علي، موضوع الحديث. سألته عن أين سيقضي نصف النهار المتبقي، أخبرني بأنه سيذهب إلى السينما لرؤية فيلم «غاندي»، لقد سمع بأنه فيلم في غاية الأهمية. وأنه جدير بالمشاهدة، دعاني للذهاب معه إليه،

فابتسمت مخبرا إياه بأنني قد سبق لي أن رأيته صحبة صديقتي الغالية «مود» ونصحته أن لايراه إلا وبصحبته إحدى الحسناوات، سألني مستغربا : ـ هل فيه ما يستوجب ذلك. أخبرته بأنه فيلم نقي تقي، ولكن الذهاب إلى السينما بدون مصاحبة امرأة أمر غير وارد بالنسبة لي، نظر إلي بخبث، وخرج تاركا باب الغرفة نصف مفتوح. لعنته بصوت مرتفع، فسمعت ضحكة عالية تنطلق منه، كأنها هي جواب على لعنتي له. قمت بعد ذلك، متثاقلا وأغلقت باب الغرفة، وعدت إلى سريري ونمت.

ـ 3 ـ

حين فتحت عيني، كانت الساعة تشير إلى حوالي السابعة إلا ربعا ذهبت، بعد أن ارتديت ملابس الخروج وغسلت وجهي، إلى قاعة الاستراحة. وجدت هناك بعض الأصدقاء المغاربة. سعيد وعبد الرحيم ومراد يلعبون «الكارطة»، وفريد وحسن وعلي يتابعون فيلما بوليسيا، جلست في ركني المعهود، بعد أن سلمت عليهم وردوا سلامي بأحسن منه، تذكرت الرسالة الغريبة التي تسلمتها، وتوقفت عند موعد اللقاء مع صاحبتها، وبدأت تتنازعني الأسئلة، هل أذهب إلى المكان المعلوم لأرى هذه الفتاة المهووسة بحبي/ ـ هل هي جميلة مثل صويحباتي الأخريات أم لا؟ هل هي غنية؟ هل أنها لاتملك شيئا؟ وكنت كلما ازدادت الأسئلة علي أزداد شوقا لمعرفة كنه هذه الفتاة، ولم ينقذني من حيرتي هاته، إلا صوت سعيد يدعوني لمشاركتهم اللعبة، لبيت طلبه بسرعة كأنما كنت أنتظره على أحر من الجمر، انغمست في اللعب، ورغم عدم تحقيق أي انتصار يذكر فيه، فقد استطعت من خلاله أن أنسى بعض هواجسي.

-4-

كانت الساعة حوالي العاشرة ليلا حين ودعتهم، وصعدت إلى غرفتي، أخذت رواية، «الغريب» للكاتب العبثي ألبير كامي، وبدأت في قراءتها من جديد. لكم تثيرني هذه الرواية، إنني أشعر بصداقة متينة تربطني ببطلها، هناك بعض الصفات التي تجمعني معه، فحين تشتد الأمور من حولي ولاتريد أن تنحل من تلقائها، أتركها تسير كما تحب أن تسير، وهو مايفعله هو تماما. لكن ماكان يجعلني أختلف عنه هو كثرة الهواجس التي تسيطر علي قبل أن أصل إلى تحقيق هذا الأمر، أي أن أقضي حوائجي بترك التفكير فيها، كما يقول المثل العربي، أخذني عالم الرواية إليه، عشت لحظات جميلة داخله، وحين تعبت، كان النوم يحيط بي من كل جانب، فلم أشعر بذاتي إلا وأنا بين أحضانه.

-5-

جاءتني «كاترين» في النوم، وذكرتني بموعد اللقاء بها وبمكانه، طمأنتها بكوني ساتي في الوقت المحدد ولن أخلف لها وعدا، ابتسمت لي، أو شعرت أنها قد ابتسمت، لأنني لم أتبين ملامحها كما يجب، فالصورة التي جاءتني بها لاملامح محددة لها. ربما يعود الأمر إلى عدم معرفتي السابقة بها، وربما قد يعود إلى عدم رغبتها في أن أراها قبل يوم موعدنا.

-6-

في اليوم التالي، ارتديت أجمل مالدي من ثياب، تعطرت جيدا بعطر سبق أن اشترته لي الغالية «مود» لا أدري لماذا أذكرها كلما تعرفت على فتاة جديدة أو كنت على وشك التعرف عليها. أخذت الحافلة رقم 33، فهي التي ستأخذني إلى موعد اللقاء. تذكرت أنه

قد سبق لي أن جلست في مقهى «ميلانو» صحبة إحدى الطالبات اللواتي كن يدرسن معي في نفس الشعبة، إذ كلفني أستاذ مادة الفلسفة بتهييء عرض حول خصائص الفلسفة الوجودية عند سارتر، صحبتها، فاضطررنا للقاء مرارا وتكرارا من أجل ذلك، وبالرغم من كونها قد كانت فاتنة، والرغم من كوني قد كنت مهذبا جدا معها، ولبقا إلى أقصى الحدود، فإن علاقتنا لم تتجاوز علاقة زمالة، فلقد كانت تحب صديقها جدا، ولم يخطر ببالها، على الأقل معي، أن تخونه، ولو لمرة واحدة. كانت الحافلة رقم 33 تسير كعادتها في طريقها الرئيسي الخاص بها، وكنت كعادتي ملتصقا بإحدى النوافذ، أنظر من خلالها المارة فلمحت صدفة صديقتي القديمة الغالية «مود» كانت تمشي وحيدة، مطرقة رأسها، كأنها تفكر في شيء هام يشغلها، خفق قلبي بشدة لمرآها، تمنيت لو رفعت رأسها نحوي حتى تشعر بوجودي من جديد، كما كانت تشعر به في السابق من الأيام، لم تفعل ذلك، كما أن الحافلة رقم 33 لم تراع رغبتي تلك، إذ ظلت تسير في طريقها، بل الأدهى من ذلك هو كون سائقها لم يتوقف حتى في الموقف التالي، لأنه كان خاليا من الراغبين في الصعود. ظلت مع ذلك عيناي تنظران في اتجاه الحبيبة المفقودة حتى توارت عني صورتها، فانغمست في استعادة أحلى الأيام التي قضيتها معها. ولم أشعر إلا والحافلة رقم 33، تقف قرب المقهى الذي كنت أنوي الذهاب إليه. ضغطت على زركان بالقرب مني معلنا رغبتي في النزول... فتح لي الباب فنزلت. وتوجهت نحو المقهى المعلوم ودقات قلبي تتسارع شيئا فشيئا..

ـ 7 ـ

كان المقهى، يقع وسط مجموعة من المحلات المخصصة إما لبيع السندويتشات الدسمة أو لبيع المشروبات الباردة ومايناسبها من

أنواع الفطائر الخفيفة. وقد هيأه موقعه البارز هذا، ليبدو أجمل مما هو عليه في الأصل، إذ منحه ثقة في ذاته، لايستطيع الناظر إليه إلا أن ينجذب نحوه بفعل تأثيرها القوي عليه، وبالفعل فقد انجذبت أنا أيضا إليه، لكن، ليس بفعل تلك الثقة، وإنما بفعل التي أعتقد الآن أنها تنتظرني داخله. حين فتحت بابه الخلفي، أحاطت عيناي بكل الفتيات الموجودات فيه، لاسيما وأنهن كن قليلات. فتاة ترتدي معطفا أحمر، لكنها لاتحمل معها أي وردة، أخرى ترتدي جاكيتة سوداء، مرسلة شعرها الذهبي على كتفيها الرائعين، ثالثة ترتدي قميصا ذا لون باهت يتراوح بين الخضرة وماهو قريب منها، وكأنها غير مبالية بما يحيط بها. أما الباقيات فكن مجتمعات مع بعضهن أو مع أصدقائهن ومنغمسات في حديث لاينتهي، أعدت بصري إلي وأخذتني غصة، لكني تمالكت ذاتي واخترت مكانا استراتيجيا يمكنني من رؤية الداخلين إلى المقهى والخارجين منه وجلست.

طلبت قهوة سوداء، وأشعلت سيجارة من النوع الممتاز وبدأت أنتظر، انتظرت بما فيه الكفاية. ربع ساعة، نصف ساعة إلا ربعا، ساعة كاملة. استبدبي غضب مفاجيء ثم أعقبته ضحكة صفراء لأنفجر بعدها في الضحك. شعرت أن الأعين تحملق فيّ فتمالكت نفسي وأديت ثمن ما أخذت وانصرفت، وما أن صفعني الهواء البارد حتى عاد إلي الضحك من جديد، فأطلقت له العنان، شعرت لحظتها أنني استغفلت من بعضهم وأن هذا البعض قد سخر مني كما يجب، إذ ليس هناك لافتاة مغرمة بي ولاهم يحزنون، كل ما في الأمر، وأرجو ألا يكون صحيحا، أن بعضهم قد كتب رسالة باسم فتاة متخيلة وبعثها إلي قصد جعلي أضحوكة لدى الآخرين، وأنه قد استغل الأول من شهر أبريل ليقوم بفعلته النكراء تلك، حتي لا أحتج عليه فيما لو عرفت حقيقة شخصيته، وما جعلني أرجح هذا

الأمر، هو كون صديقي عبده قد ابتعد عني طيلة هذا الوقت، كأنما أحرج ألا يخبرني بما يدبرونه لي من جهة وتعهده لهم بألا يفعل حتى تكتمل اللعبة وتحقق الغاية منها التي لاتتعدى مجرد هزل بريئ بين أصدقاء حميمين، من جهة أخرى، استحضرت صورة صديقتي الغالية «مود» وغرقت في تأمل ملامحها، فلم أشعر إلا وصديقي عبده يحيطني بذراعيه وهو يكاديموت من الضحك، فعلمت لحظتها أنه هو الفاعل الحقيقي لها، فانفجرت معه في الضحك، وأنا أردد بملء فمي : اللعنة عليك، اللعنة عليك!.

ـ 8 ـ

حدثني في طريق عودتنا إلى "الشاطو" أنه قد قرر أن يسخر مني كما كنت أفعل معه دائما، جمع لي أفعالي السيئة معه وفجرها في لعبة الإيقاع بي وإيهامي بأن هناك فتيات جميلات أعرفهن يقعن في حبي دون أن أدري، جعلني أكاد أن أحول نفسي إلى دون جوان آخر، معتز بذاته وبقوة جماله، وقد خشي مرارا أن أشعر بالمكيدة البريئة التي يدبرها لي، فأردها صاعقة عليه، خصوصا حين لم أخبره بتوصلي بالرسالة المجهولة، ولكنه حين أبصرني وقد نهضت مبكراً على غير عادتي وبدأت في تنظيف غرفتي اطمأنت نفسه إلى نجاح خطته، وقد سرّ لذلك كثيراً حتى وإن كان يشفق علي من الأثر الذي قد تخلفه معرفتي بما دبر لي ووقوعي فيه بسهولة كما كبش الأضحية المسكين، أخبرته بأنني سأهيىء له انتقاما سريعا لما فعله بي، فضحك كثيرا لما قلته، وهيأ نفسه لاستقباله على أحسن مايمكن الاستقبال، وأخبرني إن لم أسكت عن تهديده بأن يخبر جميع الطلبة القاطنين معنا في «الشاطو» أو حتى غير القاطنين باللعبة التي دبرها لي ووقعت في دائرتها بلا أدنى تفكيرَ، فما كان مني إلا أن طلبت منه عدم فعل ذلك معربا له

عن عدم تكرار تهديدي له، فازداد انتفاخا وطلب مني أن أؤدي عنه ثمن تذكرة الولوج إلى السينما وأن أرافقه رغما عني إليها فلم أستطع فعل شيء سوى الرضوخ لأمره، وقد عزمنا على الذهاب إليها في مساء اليوم ذاته.

ـ 9 ـ

كانت قاعة السينما غاصة بالمشاهدين، بالرغم من أن الفيلم الذي شاهدناه أي فيلم «روكي3» كان فيلما عاديا في اعتقادي، أساسه الحركة ولعبة الصراع المحبوكة بدقة بين البطل الملاكم وخصمه الأسود العنيد. لعل السبب في نجاحه يتجلى في شهرة بطله، أو لعله يعود إلى صعود موجة الأفلام التي تتحدث عن فن الملاكمة وتتخذ منه أساسا لحبكتها، كما هو الشأن مع فيلم «كرامر ضد كرامر» وفيلم «البطل». لكن رأي صديقي عبده كان مختلفا عن رأيي في هذا الصدد، فقد أعجب بالفيلم إعجابا كبيرا وقد ضاعف من هذا الإعجاب كون إحدى الشابات قد وافقته على رأيه هذاء وانسجمت معه في النقاش الذي كان دائرا حول الفيلم أثناء فترة الخروج، فنسي وجودي معه واندمج في وصف أهم لحظات الفيلم والإشادة بها، لينتهي في الأخير بتحقيق هدفه الذي تمثل له، على الأقل في هذه الآونة، في عقد موعد مع الفتاة الذي أخبرني فيما بعد أنها تتابع دراستها في شعبة الرياضيات مثله، وأنها قد سبق لها أن رأته مراراً في أرجاء الكلية، خصوصا وأنه معروف لدى الجميع بتفوقه في مادة الهندسة وسرعة بديهته في إيجاد الحلول الصحيحة لمعضلاتها الصعبة.

- 10 -

ودعنا الفتاة معا، دون أن تدعونا اللعينة لركوب سيارتها الجميلة، قصد إيصالنا إلى مقر سكنانا فتوجهنا مرغمين إلى محطة الحافلة الأقرب إلينا. وانتظرنا قدومها على أحر من الجمر. كانت الساعة حوالي الثانية عشر والنصف ليلا والشارع قد فرغ تماما من المارة، فانتابنا شيء من الخوف لاسيما وأننا كثيرا ما كنا نسمع عن بعض الجرائم التي يذهب ضحيتها بعض الشباب العربي. مرت إحدى السيارات بالقرب منا، فلم يتردد اللعين عبدو في الإشارة إليها، وكم سعدنا حين توقفت أمامنا داعية لنا لركوبها من خلال سائقتها الحسناء، والجميلة الجالسة بالقرب منها، فلم نتردد في تلبية الدعوة. كانت الموسيقى المنبعثة من السيارة صاخبة وهي تنتمي إلى فن الروك أندروك. وكانت الفتاتان تتمايلان نشوة لايقاعاتها. ابتسمت لنا السائقة الحسناء بعد أن طلبت من صديقتها التخلي عن كرسي الأمام والعودة للجلوس وراء. تقدم صديقي عبده لملء الكرسي الشاغر فرفضت السائقة الحسناء ذلك بإشارة من رأسها وأمرته بالجلوس وراء بالقرب من صديقتها، وابتسمت لي مشجعة لي على الركوب بالقرب منها، ولم أخف سروري لذلك إذ قفزت نحوها بسرعة شاكرا لها حسن صنيعها، فما كان منها إلا أن أدارت المحرك فانطلقت بنا السيارة سابحة في فضاء أرضي بسرعة جنونية لاحد لها.

- 11 -

لاحظت، كما لاحظ صديقي عبده، أن السيارة قد غيرت من اتجاهها المقصود، أي الاتجاه الذي أوضحناه للسائقة الحسناء، لكننا معا لم نستطع أن نتكلم. خفنا أن تغضب هذه المجنونة منا فترمينا كلنا في إحدى الهاويات، بما في ذلك نفسها. وبالرغم من أن

الموت صحبتها وصحبة صديقتها سيكون رائعا ، بالنسبة للآخرين، فإنه حتما بالنسبة لنا لن يكون سوى موت رهيب، لذا لم أرتح وربما لم يرتح صديقي عبده هو الآخر، فقد بدت على ملامحه كما تبين لي في مرآة السيارة علامات خوف شديد منعه حتى من التساؤل عن مقصد اتجاهنا، كما منعني أنا أيضا، إلا بعد أن توقفت بنا السيارة أمام إحدى الفيلات الباذخة الجمال. حينما أمرتنا السائقة الحسناء بالنزول وانتظارها حتى تنزل لتحدثنا في شيء مهم، لبينا أمرها وفعلنا ما طلبت منا، حتى صديقتها فعلت ذلك وهي تترنح راقصة، لما انتهت السائقة من إيداع السيارة في مرأبها. فتحت باب الفيلا ودعتنا للدخول، كما يدعو القائد جنوده، ففعلنا ما أمرتنا به بالحرف الواحد، هل تعصى الجنود قائدها؟ لا، وألف لا.

ـ 12 ـ

كان فضاء الفيلا من الداخل يشبه فضاءات «ألف ليلة وليلة»، كل شيء فيه مستورد من الشرق بدءاً من الزرابي المبثوثة فيه وانتهاء بأواني الأكل والشرب، جلسنا نحن الأربعة متحلقين حول مائدة مستطيلة، بعد أن هيأت لنا صديقة السائقة الحسناء وكانت تدعى ميراي، مالذ وطاب من الطعام، فبدأنا في الأكل والشرب وسرعان ما انسجمنا في حديث طويل تتخلله نكث متعددة المشارب والاتجاهات، وكان الضحك رفيق سهرتنا هاته. وقد استطاع صديقي عبده بخفة دمه وبروعة نكثه وجدتها أن يحظى بالاعجاب إن من الفتاتين معا أو حتى مني، الشيء الذي دفعه إلى الانتفاخ كطاووس شرقي، وحدا به إلى استعراض فحولته، ومحاولة جر السائقة الحسناء التي عرفنا أنها تدعى ديانا للجلوس بالقرب منه، وبعد أن احتملت ممازحته كثيرا، وحاولت أن تنسل منه مرارا دون أن يرعوي أو أن يعود إليه عقله صفعته صفعة تجمع لوقعها تجمع

أحدب الشاعر ابن الرومي، فلم أشعر إلا وأنا غارق في عاصفة من الضحك الهستيري اللامنتهي، ولم أشعر إلا والثلاثة ورائي يغوصون في الضحك بمن فيهم صديقي عبده طبعا. وكان ضحكا ولكنه ضحك مامن ورائه ضحك آخر، ضحك إلى حد البكاء، تفرقنا على إثره مثنى مثنى، أنا وديانا صوب الغرفة العليا وصديقي عبده وميراي صوب الغرفة السفلى، لقد كنا نمثل طبقتين اجتماعيتين مختلفتين، الناس اللّي فوق والناس اللّي تحت.

ـ 13 ـ

«احك لي حكاية إن كنت تريد أن تلمسني»!، قالت كلمتها هاته وهي تنزع ملابسها، قطعة وراء الأخرى. اشتهيتها فعلا لكنها أبت أن تنصاع لرغبتي إلا بعد أن أحكي لها حكاية تروقها، فما كان مني إلا أن امتثلت لأمرها، وماذا عساي أن أفعل وشهريارة تأمرني بفعل الحكي؟ وأنا مجرد ذكر شهرزادي، عليه أن يلبي أمر سيدته إذا أراد الحصول على رضاها. بدأت الحكي على الطريقة الشهرزادية حتى أثير انتباهها. قلت : بلغني أيتها الملكة السعيدة، فاهتزت طربا لمقدمتي هاته وأزالت ماتبقى من ملابس عليها آمرة لي بمتابعة الحكي، فلم أستطع، لقد تجسدت لي الفتنة في أبهى مظاهرها، حاولت الارتماء عليها، فما كان منها إلا أن رفعت مسدسها في وجهي وكأنها كانت على علم بما سأفعله، انكمشت كما ينكمش قنفذ أمام خطر مفاجيء داهمه، وبدأت أرتب كلماتي كي أسرد على مسامعها إحدى الحكايات التي علقت بذهني آملا أن تروق لها.

ـ 14 ـ

ـ قلت : بلغني أيتها الملكة السعيدة، أن هناك رجلا عربيا كان مولعا بصيد الغواني. كان كل يوم سبت يذهب إلى إحدى الحانات

البعيدة عن محل سكناه، وبعد أن يرتوي جيداً منها وتأخذ الخمر برأسه مأخذها، يبدأ في البحث عن أنثى فاتنة يمضي الليل معها، ناسيا أن له امرأة تنتظره في البيت، وتستعد كل يوم سبت للظهور أمامه في أبهى حلتها. وكان كل يوم سبت يجد ضالته، تارة يعثر على إحدى بنات الكلية اللواتي أزيلت عنهن المنحة الدراسية نظرا لتكرار رسوبهن، وليس لهن القدرة على أداء ثمن سكناهن، فيفضلن الانجراف إلى العهارة بدل العودة إلى دور آبائهن حاملات علامات فشلهن الدراسي، وتارة كان يجد إحدى المطلقات اللواتي تخلى عليهن أزواجهن إما لشكهن في نزاهتهن وإخلاصهن لهم، أو لسبب آخر من الأسباب الكثيرة الدافعة للطلاق، فلم يجدن إلا هذا الطريق للسير فيه حتى النهاية، مدعيات الانتقام من جنس الرجال والضحك عليهم وقليلا ماكان يصادف إحدى الغواني اللواتي يحببن اللهو والزهو في حدذاته فيقضي الليلة معها في غاية السرور والمرح والانشراح. وذات يوم سبت، كان يمشي مترنحا كعادته، باحثا عن صيد ثمين، فلمح طيف امرأة يتراءى من بعيد، كانت المرأة مستقيمة القامة كعود الخيزران، تمشي في تمهل كما تمشي الحمامة، فشدت أنظاره، وبدأ قلبه في الخفقان، أي جمال هذا ياربي؟، ماالذي دعاه إلى الخروج في هذا الليل البهيم؟ من الذي سمح للغزال البري بالانطلاق ليلا؟ حاول الاقتراب منه، بدأ في مغازلته، تشجع فأمسك به فكانت المفاجأة - قالت فاتنتي ديانا مقاطعة لي بلهفة : أي مفاجأة هاته؟ هل وجدها إحدى الجنيات كما في «ألف ليلة وليلة»؟ هيا أجبني وإلا قتلتك؟ هيا... إني لا أمزح!

- قلت محاولا الضغط على أعصابها بعد أن أدركت أني ربحت الرهان : بل وجدها زوجته!

- قالت : وماذا فعل؟ ماذا كان موقفه إزاء هذا المصاب الجلل؟

- قلت : هناك قولان!

ـ قالت : ماهما؟ قل وإلا قتلتك!

ـ قلت : لن تقدري!

ـ قالت : أرجوك، قل إني أريد معرفة ماقد وقع!

ـ قلت : وتفي بوعدك لي إن قلت؟

ـ قالت : طبعا! أقسم لك

ـ قلت : هناك من يقول إنه قد طلقها بعد أن شبع فيها ضربا وسبا، وهناك من يقول بأن قد عرف أن الخطأ منه وأنه هو الذي كان سببا في جرها إلى العهارة حيث كان يتغيب عنها باستمرار وتحديدا كل يوم سبت، فأعادها إلى منزله وقرر أن يبدأ حياته معها من جديد بعد أن أقسمت له بأنها لن تخونه من جديد أبدا إن هو قام بواجبه نحوها كما يجب.

ـ قالت : بعد أن راقتها النهاية الثانية لهذه الحكاية : الآن، هيت لك.

ـ 15 ـ

في هذه الليلة كنت صريعا لهذه الغانية، كانت أنثى حقيقية، تذكرت شاعرنا العربي مسلم بن الوليد. عذرته حين كان يسقط في أحضان النساء واحدة بعد الأخرى حتى لقب بصريعهن. بحث عن ديوانه لأعيد قراءته من جديد، وكم كانت سعادتي كبرى حين وجدته عند أحد الأصدقاء وأثناء إعادتي لقراءته، كنت غالبا ما أتوقف عند بعض الأبيات الشعرية الجميلة التي كانت تذكرني بتجربتي الليلية المثيرة مع الفاتنة التي لاتنسى : ديانا.

ـ 16 ـ

حقا إنها لأبيات رائعة، تدفع الإنسان الشرقي لأن يحتوي بنات الغرب كلهن في داخله دفعة واحدة، أبيات يتوحد فيها الشرق والغرب، كما يجب أن يكون التوحد، توحد الذات بالذات، والروح بالروح والجسد بالجسد.

* هوامش الفصل العاشر*

1) - قرر السارد ألا يذكر تلك الأبيات التي استحضرها للشاعر الفاتن : مسلم بن الوليد، وهو يستذكر الوقت الجميل الذي قضاه مع فاتنته "ديانا" وترك للمتلقي إمكانية البحث عنها في ديوانه عله يعثر عليها بنفسه أو يعثر على أبيات أخرى أجمل منها قد تعبر عن تجاربه الخاصة به هو شخصيا، بدل الاكتفاء بما يخص السارد وحده.



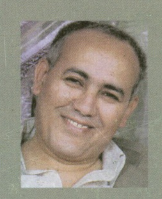
اختتام شعري

ولقد طوفت في الآفاق حتى

قنعت من الغنيمة بالإياب

امرؤ القيس

الفهرست



شاعر و روائي. وُلد سنة 1960 بالدار البيضاء. حصل على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها من جامعة محمد الخامس بالرباط .عضو اتحاد كتاب المغرب وجمعية نقاد السينما بالمغرب .يمارس التدريس بالتعليم الثانوي بالدار البيضاء .

صدر له :

-الألواح البيضاء : مجموعة قصصية .الدار البيضاء. منشورات مجموعة البحث في القصة القصيرة بالمغرب. 2006 .

-حديقة الأشواق : ديوان شعر باللغة الفرنسية. الولايات المتحدة الأمريكية . منشورات " الشعراء الألف".2006.

-عرائس البحر الأبيض المتوسط : ديوان شعر باللغة الفرنسية. منشورات " الشعراء الألف " الولايات المتحدة الأمريكية. 2007.

-أزهار الشرق : ديوان شعر باللغة الفرنسية . الولايات المتحدة الأمريكية. منشورات "الشعراء الألف" .2007.

الثمن :
30 درهما